مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة العنكبوت

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة العنكبوت

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

ابتدأت سورة العنكبوت بِمْثِل ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران. قال تعالى ﴿الٓمٓ﴾ وهي ثلاثة أحرف من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام ثلاثة أحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأَمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معناها ودلالتها.

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[١]

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.(١)

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، ليُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف(٢) وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله تعالى سورة العنكبوت ببعض الحروف المقطعة بقوله عَزَّ وجل ﴿الٓمٓ﴾ لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، وبما يثبت أنه من عند الله العزيز الحكيم، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، أوضح الله تبارك وتعالى بعد ذلك ما قرره بحكمته من أنه: لا يترك الناس يَدَّعُون الإيمان من غير أن يمحصهم، ليتبين المؤمن من غير المؤمن، وهو أعلم بهم من غير ذلك، ولكن ليظهر لهم ما هم عليه، فَيُقِيم العدل بينهم في الحكم والجزاء والثواب، فقال تعالى ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أيعتقد ويظن الناس أنهم يُترَكُون في دعواهم وزعمهم بأنهم مؤمنين من غير تمحيص وابتلاء يُفتنون ويُخْتَبَرون به، ليتحقق وينكشف المؤمن الصادق في إيمانه من الكاذب الذي يدَّعي الإيمان كذباً وزوراً. وفي هذا تقرير من الله تعالى بحقيقة الابتلاء، ليظهر صادق الإيمان من الكاذب في إيمانه، وبما يفيد ويقرر للمؤمن أن الابتلاء والتمحيص حقيقة من الله تعالى، فعليه أن يصبر تجاه ما يجده في حياته، ويعض ويشد على إيمانه، ويتمسك به أشد التمسك. كما قال تعالى في سورة الأحزاب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ وكان قول المؤمنون هو ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

(١) المرجع السابق (١/١٠٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٧)

ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾
فكان هناك اختلاف بين الناس فيما رأوا، بين مؤمن مصدق، فازدادوا به إيماناً. وبين منافق تقلبت قلوبهم بين إظهار الإيمان وإخفاء الكفر، بين إقبال وإدبار، فالذين في قلوبهم مرض يصفون وعد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالتغرير الذي لا حقيقة لِمَا وُعِدُوا به.

وبدأ التوجيه الكريم بسؤال استفهام ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ ﴾ ليقرر به الحقيقة، ويستنكر به على من يظن أن الله تعالى يجازي من غير فحص وتمحيص للعباد، وفي هذا شد الانتباه، ولفت الذهن للحسبان والتوقع والظن الخاطئ. فهل تحسبون أيها الناس أن تُتركوا من غير تمحيص يظهر به الصادق من الكاذب. ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾

وقد ورد تأكيد هذه الحقيقة الربانية بسؤال تقريري، يقرر به عَزَّ وجل الابتلاء والاختبار لمن قال بأنه مؤمن، وفي نفس الوقت هو سؤال استنكار لمن يظن قبول ادِّعَاء من ادَّعَى الإيمان وهو غير صادق في دعواه، من غير اختبار وتمحيص، ليظهر المنافق من المؤمن. ومن دقائق البيان أن الله تعالى لم يقل: أحسب المؤمنون أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون. لأنه سبحانه وتعالى إذا سماهم بالمؤمنين فقد زكاهم، فلا يحتاج من يزكيه الله تعالى إلى فحص واختبار. فالله تعالى عالم بأن إيمانهم لا يتطلب الاختبار والفحص ليخرج الكافرين منهم، لأن ليس فيهم كافرون. وبالتالي فليس هم المخصوصون في هذه الآية من بين الناس، بل خص البيان جنس الإنسان ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ ليستوعب كل من قال أنه مؤمن، ومنهم المنافق، والكاذب، الذي ليس هو بمؤمن، حتى يُظهِرُه نفاقه، وكذبه، وشَكُّهُ بأنه لم يكن مؤمناً.

وقد بين وأوضح قوله تعالى ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ تنوع الفتنة، فلم يُورد البيان حصرها في نوع محدد ومعين، بل ورد الافتتان عاماً، ليعم ويشمل جميع أنواع الاختبار والتمحيص بالمصائب، والعطاء، والخسائر، والفقد، والأمراض، والأوامر والنواهي، والوساوس، وغيرها، مما لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى. ولذلك ما أفقر وأحوج الإنسان لربه تبارك وتعالى، بأن يثبته، ويعينه، ويقوي إيمانه. اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وحبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

ثم يؤكد عَزَّ وجل ما قرره من التمحيص والابتلاء والاختبار، بما أصاب الأمم السابقة، فيخبر الله تعالى عن كمال وتمام حكمته وسنته فيمن كان من قبل من الأمم السابقة، التي أصابها بالتمحيص من الابتلاء والاختبار، ليظهر الصادق في إيمانه من الكاذب المخادع، فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ فينفي تبارك وتعالى ظنون الناس وحسبانهم من أن ادعاء الإيمان كائن من غير تمحيص واختبار، فأنه حسبان وظن خاطئ، بدليل ما حصل للأمم السابقة من افتتانهم واختبارهم ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فلقد مَحَّصْنَا الذين من قبلهم من الأمم.

فبدأ البيان الكريم بلام القسم وحرف التحقق ﴿ وَلَقَدْ ﴾ ليؤكد للناس حقيقة الابتلاء، وليتعامل المؤمن الصادق معه بالصبر واليقين، حتى يحققوا أعلى الدرجات، وليُخرِج به منهم من يخالطهم من المنافقين، والكاذبين، وأصحاب المصالح الدنيوية، وينكشف ويتبين حالهم، فلا ينخدعوا بهم. ومن قوة البيان أن أسند الله تبارك وتعالى فعل الافتتان إليه عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ﴾ كما ورد فعل الافتتان من الله تعالى ليس على أفراد محدودين بل على جميع من كان قبلهم من الناس ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أجيال وأمم لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى.

ثم يبين تبارك وتعالى العلة والسبب من ذلك الافتتان ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ فليظهرن الله تعالى الصادقين بثبوتهم ورسوخهم على الإيمان الصادق ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ وليميزن وليظهرن الله تعالى بعلمه الكاذبين في دعواهم الإيمان وهم كاذبون بما يكشفهم ويبتليهم به من ابتلاء الفحص والتمحيص، والاختبار الذي يُظهر ويكشف المؤمن من الكافر الكاذب. والله تعالى يعلم بحقائقهم من غير ابتلاء لهم منه سبحانه وتعالى. ولكن لتقوم الحجة، ويظهر كل إنسان بما هو عليه، عدلاً منه سبحانه وتعالى. حتى يميز أهل الجنة من أهل النار بعدله وحججه وبراهينه. فكما فتنا الذين قبلكم، نفتنكم، لأن ذلك سائر على العباد أجمعين. فهذه سنة الله تعالى في عباده.

ثم يبين ويوضح سبحانه وتعالى خطأ واعوجاج فهم المرتكبين للسيئات ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أحسب أولئك الذين شُغْلُهُم الشاغل ارتكاب السيئات أن يفوتوا علينا؟ أفي تصورهم وحسبانهم وظنونهم أنهم يفوتون علينا؟ ﴿ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أي: يفوتون علينا من غير مؤاخذة لهم، فعليهم بأن لا يعتقدوا ولا يحسبوا بأنه بفوات العقوبة في الدنيا أنهم يفوتون من العقوبة في الآخرة. فإن فواتهم في الدنيا هو عن تأجيل إرادتنا بتأجيل عقوبتهم، إذ لم نُقَدِّر عليهم ذلك في الدنيا، فليغيروا ويصححوا حسبانهم، فإنهم تحت سلطتنا وسلطاننا وقهرنا، فلم يُعجزونا في أخذهم بالعقوبة، ولكن لله تعالى حكمة فيما قضى ويقضي، فذاك بحلمه، وتمكينهم من الرجوع والعودة إلى رشدهم، فهو تأجيل رحمة، لا تأجيل فوت ونسيان. فلو عجل العقوبة لكل عاص في معصيته لأفنى الناس جميعاً سبحانه وتعالى، لكثرة معاصيهم، ولكنه حليم ورؤوف رحيم سبحانه وتعالى، لعلهم يتوبون، ولعلهم يرجعون. مما يفيد بأن لا يعتقد من أجَّل الله تعالى عقوبته أنه قد أفلت من العقوبة، فإنه ليس بمعجز على الله تعالى، ولكن لله تعالى حكمة فيما يذر ويمهل.

وفي هذا تهديد للكافرين الذين يمهل لهم سبحانه وتعالى بقدرته، فينجيهم سبحانه وتعالى من العقوبة في الحرب أو في غيرها من الشدائد والمصائب والكوارث. فتأجيل عقابهم لا يعني أنهم سيفوتون علينا من غير مؤاخذة لهم بما كانوا ﴿ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ وتشمل السيئات جميع المعاصي، وأشدها الكفر. ومنها ظنونهم الفاسدة بأن الله تعالى سيغفل عنها، وأن أعمالهم السيئة سَتُهمَل، فساء حكمهم وفهمهم ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ فبئس ما

حكموا لأنفسهم به حين اعتقدوا بظنهم الفاسد، وما حسبوه في فهمهم وحكمهم الجاهل من أنهم يفوتون عن محاسبة الله تعالى لهم قياساً على تأجيل الله تعالى لهم العقوبة في الدنيا. فبئس الحكم ما حكموا به لأنفسهم، وحكموا به على ربهم تبارك وتعالى من أنهم يفوتون قياساً على تأجيل الله تعالى لهم العقوبة في الدنيا، وعدم المسارعة لهم بها. فإنهم في جهل مركب من الفهم الخاطئ، على الحقيقة الساطعة. فإن الله تعالى حليم على عباده، فلو عجل العقوبة لكل عاص في معصيته لأفنى الناس جميعاً، لكثرة معاصيهم، ولكنه حليم ورؤوف رحيم سبحانه وتعالى، لعلهم يتوبون، ولعلهم يرجعون إلى الحق.

ومن دقائق السياق أن بدأ النص الكريم بسؤال استفهامي ﴿ أَمْ حَسِبَ ﴾ ليقرر به الحقيقة، ويُجَهِّل ويستنكر به على من يظن أن الله تعالى يجازي من غير فحص وتمحيص للعباد، وأن في ترك وتأجيل عقابهم في الدنيا يماثله ذلك في الآخرة. وكأنهم يظنون بأن الله تعالى لا يحفظ ويسجل سيئاتهم، ومجازاتهم عليها. وفي هذا السؤال التقريري للحقيقة شد الانتباه، ولفت الذهن للحسبان والتوقع والظن الخاطئ. فلا تحسبون يامن أنتم منغمسون في السيئات أن تُتركوا هملاً من غير حساب وجزاء، وأنكم تفوتوننا وتخفون علينا.

ثم يخبر الله تعالى عن حال المؤمنين في الدنيا وما يرجونه في الدار الآخرة من ثواب ربهم بعد موتهم، فيخبر الله عَزَّ وجل أنه سيحقق رجاءهم ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فمن كان يأمل ويطمع في لقاء الله تعالى، وهو معنى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ ﴾ لإيمانه وإقراره بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، ويطمع في ثواب ربه عَزَّ وجل ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍ ﴾ فإن الأجل الذي حدده ليوم البعث والنشور والحساب والجزاء، فإنه قادم ومتحقق وليس ببعيد. وفي هذا بشارة للمؤمنين بالجزاء والثواب على إيمانهم وتصديقهم، وطاعتهم لربهم رجاء ثواب اليوم الآخر. ثم يؤكد ربنا تبارك وتعالى ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهو يسمع كلامكم، ويعلم ما هو منكم، بما يؤكد إحصاء ذلك وتثبيته لهم، فلا ينقص من أجورهم شيئا. فإن لهم اعتماد ذلك، وتحقيق اليقين به. وقد وردت صفتين لله تعالى ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ كما جاءت بصفة العموم الدالة على الشمول، فهو سميع لكل شيء، وعليم بكل شيء، ومنه ما يكون منكم من جميع الأقوال والأعمال. وما يكون من غيركم.

وقد وردت هنا صفتان لله تعالى ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأكمل وجه، وأتم بيان، بل جاءت بصفة العموم الدالة على الشمول، فهو سميع لكل شيء، وعليم بكل شيء، ومنه ما يكون منكم من جميع الأقوال والأعمال. بل وحصرت وقصرت كمال السمع والعلم عليه سبحانه وتعالى، فلا يشاركه أحد في كمال السمع والعلم. فإن الله تعالى يسمع ويعلم ما قيل، وما يُقال، ويعلم ما توسوس به النفوس، وما يدور في خلجاتها. وفي هذا تعزيز لثقة المؤمن بربه تبارك وتعالى، بأنه مطلع عليه، وعلى ما يكون منه، وما يكون من غيره معه أو عليه، فعليه أن يستعين بربه الذي يسمع ويعلم حاله، ومناجاته، وما يكون منه، وما يكون من غيره معه، أو عليه. مما يجعل المؤمن في ثقة

بأن الله تعالى صارف عنه ما يدافعه من لشر، وما يمتنع عنه المؤمن من المعصية، فيكتب له ثواب جهده وجهاده لنفسه.

وإذا علم وأيقن الإنسان أن الله تعالى ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ جعله منه ذلك العلم العظيم، شخصاً ملتجئاً إلى الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة، لأنه مُوقن بأن الله تعالى يعلم أمره وشأنه، وأنه به عليم خبير، فيفوض أمره إلى الله تبارك وتعالى. كما يعينه هذا العلم والفهم على استحضار مراقبة الله تعالى له ولغيره في جميع تصرفاته وأحواله، وأن الله تعالى يراه على كل حال يكون عليه، مما يدفعه ذلك إلى الاجتهاد في السير على الجادة، خوفاً من معاقبة الله تعالى له إن حاد عن الطريق. وأيضاً هو به عليم بما يعمل من الصالحات والطاعات. فهو موقن أن الله تعالى يعلمه، وسيجزيه أجر ما صنع من الخير، فلا يحتقر معروفاً يقوم به، ولا يستخف بمعصية يمكنه القيام بها. فإنه عِلمٌ يربي في المؤمن الاستقامة، ويقوده للخير، ويمنعه عن الشر.

ثم يؤكد تبارك وتعالى لعباده المؤمنين بحفظ ما يكون منهم من الإيمان والأعمال الصالحة، والطاعة، وبأن نفعها عائد إليهم، فلا حاجة لله تعالى فيها، لأنه غني عن العالمين أجمعين ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فمن جاهد نفسه على طاعة ربه تبارك وتعالى بالامتثال له في أبواب الخير والنفع ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ فإنما اجتهاده عائد نفعه لنفسه. فهو المستفيد، بما يعني ويفيد التحفيز على الاجتهاد في مجاهدة النفس، فإن المنتفع بها هو المجتهد، وليس غيره.

وقد ورد جهاد النفس عاماً ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ فيشمل جميع أنواع مجاهدة النفس في الطاعة، وفي كفها عن المعصية بجميع درجاتها وأنواعها. كما ورد المردود لها بأسلوب الحصر ﴿فَإِنَّمَا﴾ التي تفيد الحصر بأنها لصاحبها ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ فعودة ثواب الجهاد هو للمجتهد، من قليل أو كثير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن ربكم غني عن جهادكم واجتهادكم في طاعته، فلا تناله منكم منفعة تتحقق له سبحانه وتعالى، لأنه ﴿لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو غني عن العالمين جميعاً، فلا يحتاج إليهم، وهم محتاجون وفقراء إليه سبحانه وتعالى. مما يعلم المؤمن أن يجتهد في طاعة ربه ليحصل على الخير الوفير في الدنيا وفي الآخرة، فإن الدنيا مزرعة للآخرة.

ثم يزداد الترغيب من الله العزيز الحكيم للمؤمنين في الإكثار من أنواع الطاعة والامتثال لله رب العالمين، فيقول عزّ وجل ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فإن الذين صَدَّقُوا بما جاء عن الله تعالى، بالإيمان الكامل، وعملوا بما جاءهم به رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ لنمحو عنهم ذنوبهم، ونسترها عليهم، وكأنهم لم يعملوا من السيئات شيئاً

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ولمنحهم من المثوبة بأفضل مما كانوا يعملون من الطاعات. وهنا لم يحدد تبارك تعالى الجزاء بحد معين، بل بالغ في كثرته ونوعه بالأحسن ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بما يفيد المبالغة في الجزاء، وليس هناك أكرم من الله سبحانه تعالى، فهو يضاعف الحسنات إلى سبعمائة وضعف وأكثر. وفي هذا اطماع وتحفيز للمؤمنين بأن يجتهدوا في الطاعة. وأن لا يجعلوا من الأخطاء والتقصير الذي يحصل منهم مُثبط لهم عن العمل الصالح وطاعة رب العالمين.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عن عظيم عنايته برعاية الوالدين من جهة أولادهم، حتى وإن كان الوالدان كافرين. فيقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وأمرنا الإنسان أن يبر والديه، ويعطف عليهما بالقول والعمل. وورد الأمر بالإحسان إليهما بالتوصية ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ والتوصية هي توجيه يقتضي المبادرة إلى الغير بما وصَّى به الموصِي، وهو الله سبحانه وتعالى، فما أجلها من وصية، وما أعظمه مِن مُوصِي سبحانه وتعالى، والموصَى بهم هم الوالدان، من غير طلب منهما بما تم التوصية به، وهو الإحسان إليهما وأما الذين أوصاهم فهم الأولاد، وموطن الوصية هو الإحسان. قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ حكمه حكم أمَرْنَا في معناه وتصرفه(١) ومن رفعة مقام التوصية والْمُوصَى بهما أن الذي أمر بهما هو الله سبحانه وتعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ بضمير المتكلم الذي يفيد التفخيم والتعظيم من المتكلم وهو الله عَزَّ وجل، ليعطي الوصية شأناً ومكانة بفعل الأمر وبتفخيم الذي أوصى بهما. بل ومن تعظيمها أن وردت لجنس الإنسان ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٣٨/٣)

لإفادة التحضيض والتعظيم للوصية، بالرغم من أن أكثر الناس من الكافرين. ليدل ذلك على التعظيم لشأن الوالدين.

كما ورد اسم الْمُوصَى بهما بلفظ الوالدين ﴿ بِوَٰلِدَيۡهِ ﴾ فلفظ الوالدين يشير إلى الولادة، وعناء الحمل، وعناء مصاريف المعيشة، والرعاية للحمل، ثم للمولود، ثم لمراحل نشأة الطفولة، وما فيها من العطف والحفظ والرعاية. كما تشير دلالة ﴿ بِوَٰلِدَيۡهِ ﴾ إلى أنهما الأصل لهذا الولد، وهو الفرع منهما. ثم ورد بما يقوم به الولد تجاه والديه بكلمة جامعة لمجامع الخير كله، وهي الإحسان ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا ﴾ والإحسان مفردة جامعة لجميع أشكال وألوان ودرجات البر، بالقول والفعل. فيجب بأن لا يرى الوالدان من الولد إلا أنواع الإحسان إليهما.

ثم تلى الأمر بمزيد من التحضيض الذي يضبط علاقة البر والإحسان ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآ ﴾ فواصل واستمر في برك لهما، حتى وإن كانا مشركين بالله تعالى، ومع ذلك فإن اجتهدا معك في أن تشرك بربك تعالى، وتخرج عن إيمانك ﴿ فَلَا تُطِعۡهُمَآ ﴾ وكلمة ﴿ جَٰهَدَاكَ ﴾ تفيد المبالغة في طلبهما لك أن تشرك بالله تعالى، وإصرارهما، فمع تلك الوصية بالبر بهما، فلا تطعمها في الشرك، ليدل النهي عن عظيم إثم الشرك، وفي استثناء الشرك من وصية الإحسان ما يدل على قوة الحث على برهما. فهو تحقيق لمسألة في غاية الدقة. وليدل على رحمة الله تعالى بالوالدين في غير معصية الله تعالى. وأن توقف البر يكون فقط في حدود المعصية.

ومن دقائق البيان الكريم أن ورد النهي عن طاعتهما في الشرك بأسلوب عظيم حكيم ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ فجملة ﴿ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ تفيد أن الأصل في العلم هو توحيد الله تعالى، وأنه ليس له شريك، والمؤمن يعلم علم اليقين أنه ليس لله تعالى شريك. وبالتالي فإن الذي ليس لك به علم فلا تُمكنه من نفسك وتَدَّعِيه بالباطل، وواقع الشرك أنه ليس له دليل بجميع أنواعه، فمقتضى ما ليس لك به علم مرهون بالحجة، واعتماده على الأدلة والبراهين. وبالتالي ليس هناك علم بأن هناك شريك مع الله تعالى. فورد النفي على الحقيقة التي يعلمها المؤمن. وجملة ﴿ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ تبين أن دين الله تعالى قائم على العلم، المتمثل في الأدلة والبراهين، ولذلك يُعيد التوجيه الكريم الإنسان في تصحيح عقيدته إلى الحقيقة المبنية على العلم بالحق. وليس هناك حق شراكة لله تعالى، فهو الذي خلق وأنشأ الخلق

وحده لا شريك له، ومن ذلك: خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وتدبير الكون، وغير ذلك من الخلق والتدبير.

فيأمر سبحانه وتعالى بما يستثني به من طاعة الوالدين، وهو الشرك ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق مهما بلغت درجة وجوب الطاعة شرعاً، فعند طلب المعصية يتوقف البر في تلك المعصية فقط، مع استمراره في غير المعصية. مما يدل على عناية الله تعالى بالوالدين حتى وإن كانا مشركين، فإن المؤمن يُثاب على بره لوالديه وإن كانا كافرين، وأنه يعاقب على عدم الإحسان إليهما وإن كانا كافرين. لأن الأمر بالإحسان يقتضي الوجوب الذي يعاقب تاركه، ويُثاب فاعله. كما يفيد ذلك على عظيم معصية الشرك التي منع منها طاعة الوالدين على شدة الوصاية منه سبحانه وتعالى بالإحسان إليهما.

ثم يحذر الله تبارك وتعالى من الشرك ومن طاعة الوالدين في الكفر والمعصية، فيقول عَزَّ وجل منبهاً ومهدداً ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فاعلموا أن مرجعكم إليَّ، فحينها أُخبركم بما كان منكم من أعمال، فأجازيكم على الإحسان إحساناً، وعلى المعاصي بما تستحقون. بما يفيد إياكم والشرك، وإياكم وجميع المعاصي.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى تحقق الجزاء للمؤمنين بقوله عَزَّ وجل ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ فإن الذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبجميع أركان الإيمان ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ وهو القيام بشريعة الله تعالى، وما أمر فيها من العبادات، وكافة الأعمال ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ لنجعلهم ضمن الصالحين الذين نُدخلهم الجنة. ومن دقائق البيان أن الله تعالى وصف شريعته العظيمة بأعظم الصفات ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فَسَمَّى كل ما فيها من مأمور بالصالحات، بما ينفي عنها كل أمر وتشريع غير صالح، ويُثبت أن جميع مضمونها ومحتواها شامل ومتكفل بالصلاح، ومحقق له، سواء ما يخص الفرد أو ما يخص المجتمع. وبالتالي فإن من أقام الدين فقد أقام الصلاح، وزال وأزال الفساد، ومن لم يعمل بدين الله تعالى فقد حل به الفساد، وامتنع عنه الصلاح. وهي الحقيقة التي يشاهدها الإنسان بعينه في شريعة الله تعالى وفي تطبيقاتها.

ولما ذكر الله تعالى تمحيص من ادعى الإيمان فإنه يخبر عَزَّ وجل بمداخل وطرائق الكشف التي تُظهر حقيقة من يَدَّعى الإيمان كذباً، والتي يُؤتَى منها المنافق والكاذب، فينكشف بها حاله، وتظهر بها حقيقته، وتحايله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن

رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإن حال بعض الناس ممن يدعي الإيمان إذا نزلت المصائب به والأذى من الناس في دين الله عَزَّ وجل، فإنه يجعل منزلة الغير من الناس له معادلة لعذاب الله تعالى، فلا يقدم الخوف من عذاب الله تعالى على ما يصيبه من أذى الناس، بل يدفع أذاهم بمعصية الله تعالى، ومجاراتهم في الكفر والشرك والمعاصي.

ومن دقائق التوجيه الكريم أنه لم يقل: من المؤمنين، بل قال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ لأن المؤمن لا يحدث منه ما يحدث من غير المؤمن، فسماه ونعته بأنه من الناس، وبهذا نزه المؤمنين عنهم ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ فبعض الناس ممن يَدَّعي الإيمان بالله تعالى، والذي يستوجب منه الثبات بما قرره الله تعالى، وما أخبر به من الابتلاء والفتن، وما يجب على المؤمن حيالها فإنه لا يلتزم بذلك ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ ﴾ فإذا أصابه أذى من الناس، وكان هذا الأذى متعلق بدين الله، لأجل توحيد الله تبارك وتعالى، ولأجل تمسكه بطاعة الله عَزَّ وجل ﴿ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ ﴾ سواء كان الأذى من المشركين آنذاك في إقراره بتوحيد الله تعالى، أو ما يحدث في أي وقت وزمان من الفتن التي يروجها الكافرون، سواء من الفتن الفكرية، أو الفتن في المال أو نحوه ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ لم يرجح الخوف من عذاب الله تعالى على فتنة الناس التي فتنوه بها، بل يساوي بينهما، بأن يجعل فتنة الناس مشابهة لعذاب الله تعالى الموعود به يوم القيامة، لمن أخلف إيمانه وأفسده. وهنا يقدم العاجل على الآجل، فيجعل الأولوية لفتنة الناس، فيطاوعهم ويسايرهم فيما يرون ويطلبون. مما يفيد الذم والتحذير والتقبيح لمن هذا مسلكه. بل يجب عليه أن يصمد إن كان مؤمناً أمام الفتنة، ويستعين بالله عَزَّ وجل. فهو خير معين، وخير من يُصْمَد إليه ويستعان به، ويُلتجأ إليه.

كما أن هذا النوع من الناس سريع التحول والتذبذب، ففي حالة ظهور المؤمنين، وانتصارهم، وبروز قوتهم، فإن شأنه يكون مخالف لما كان منه مع الذين فتنوه ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ ولئن ظهر نصر الله تعالى للمؤمنين، سواء ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو ما كان ويكون بعده، في أي زمان ومكان كان، فإن حاله هو ﴿ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ زعم أنه مع المؤمنين ناصراً ومؤيداً، ومجاهداً ﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أليس الله تعالى عالم بحقائق العالمين أجمعين وليس بشيء دون شيء؟ سؤال استنكار لما هو عليه هذا المنافق، وسؤال تقرير بأن الله تعالى عالم بما في ضمائر العالمين أجمعين. فهو خبر من الله تعالى بأنه عليم بالبواطن، ولا تَغُرُّه الظواهر والمظاهر، فيعلم ما

تخفيه صدور الناس أجمعين. وورد بيان علم الله تعالى بصيغة السؤال الاستنكاري، والاستفهام التقريري، الذي يقرر به علمه بجميع ما في صدور العالمين. والاستنكار على من يتعامل بخلاف ما في قلبه مما يبطنه من الشك والريبة، والتحايل، وعدم رسوخ الإيمان في القلب، بما يفيد الذم والتقبيح لهذا الصنف الذي يكون اعتقاده في ربه بتلك الصورة، وبذلك المعتقد الذي في ذهنه، والقاصر عن الطمأنينة، لسوء نيته وطويته.

ثم يقرر الله تعالى أنه بهذا الابتلاء والتمحيص، لَيُظْهِرَنَّ به المنافقين، والشاكين من أهل الريبة، وأهل الضلال، والمتحايلين على المؤمنين ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ فليظهرن الله تعالى حقائق المؤمنين ومن المنافقين. ولكشف وتحصيل حقيقة الفئتين المتضادتين، وإظهار كلاً على حقيقتها فإنه يتطلب لزوم الابتلاء والتمحيص، ليتحقق شأن المؤمنين ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وليعلمن الله تعالى بإظهار الذين صدقوا وثبتوا على الإسلام عند الابتلاء. وليتحقق شأن المنافقين ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ والله تعالى عالم بهم من غير تمحيص، ولكن المقصد إظهار العلم بشأنهم لغيرهم، ولتقوم الحجة. فليعلمن الله تعالى بإظهار وكشف المتسترين بالإيمان، وكشف سوء بواطنهم من النفاق والشك والتحايل والتظاهر الباطل. وليتحقق العلم الذي يحاسب عليه من ترك الإسلام عند نزول البلاء. فإنه بإظهارهم تظهر الحقائق، ويتم فرز المؤمنين عن بقية الناس، ويظهر المنافقون.

فالمؤمنون يظهرون بصدق إيمانهم المتمثل في الصبر، وانتظار ما وعد الله تعالى به في الدنيا من النصر، وفي الآخرة من الأجر. ويظهر المنافقون الذين تنكشف بواطنهم بما يكونون عليه من الخداع. إذ جعلوا فتنة الناس مساوية لعذاب الله تعالى. ويجعلون الأولوية لفتنة الناس، فيطاوعونهم فيما يرون ويطلبون. بما يفيد الذم والتحذير والتقبيح لمن هذا مسلكه. بل يجب عليه أن يصمد أمام الفتنة إن كان مؤمناً حقاً، ويستعين بالله عَزَّ وجل. فهو خير معين، وخير من يُصْمَدُ إليه ويستعان به، ويُلتجأ إليه. مما يبين أن الله تعالى يمحص الناس، تمحيصاً لإخراج ما في بواطنهم، وهو أعلم بهم من غير تمحيص، ولكن ليحدث به تعريف المؤمنين بهم، حتى لا ينخدعوا بهم، ولتقوم عليهم الحجة الظاهرة، فيكون الجزاء على ظاهر الأفعال والتصرفات التي تكشف وتُعري ما تخفيه الصدور.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ
خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا

خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

ومن الفتن التي واجهت وتَعَرَّضَ لها المؤمنون قول المشركين لهم، بما قاله الله تعالى عنهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فمن جرم الكفار، وتطاولهم على الله تبارك وتعالى أنهم يحرضون المؤمنين على الكفر، بالإغراء والتضليل، والتعهد بتحمل إثم خطاياهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا ﴾ اتبعوا طريقنا الذي نحن عليه، واتركوا التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من الشريعة. ومقابل ذلك، إن كان صادقاً فإننا نتعهد بحمل آثامكم ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ وفي كلامهم هذا تعريض واستنقاص للدين، بمعنى: إن كان صادقاً بأن هناك بعث وحساب وجزاء، فإننا نتعهد لكم بأن نتحمل عنكم أوزار وجزاء آثامكم وخطاياكم، وهذا فيما إن كنتم أخطأتم باتباعنا. فيتكلمون بمنطق الثقة التي يكذِّبون بها رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأوردوا تعهدهم بلام الأمر والالتزام لهم على أنفسهم ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ وذلك على سبيل الاغراء والتطمين. فإننا نتعهد لكم بذلك، مقابل أن تتركوا محمداً وما جاء به صلى الله عليه وسلم من الحق. وهذا القول منهم دليل على كفرهم بالبعث والحساب والجزاء، فهم يقولون ذلك من باب التكذيب لمن قال بالبعث والحساب والجزاء، فلسان حالهم: إن كان هناك حساب وجزاء فنحن نتحمل عنكم ذلك. بما يفيد فلا تصدقون محمداً فيما يقول. عليه أفضل الصلاة والسلام.

فيرد الله تعالى على افترائهم بالنفي، وبإلصاق الكذب بهم ﴿ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فما هؤلاء الكفار بحاملين شيئاً من خطايا غيرهم التي يزعمون لكم بحملها عنكم ﴿ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ وإنهم متصفون بالكذب فيما زعموا لكم من الضمان والقول من البهتان. وهذا تكذيب من الله تعالى للمشركين، بما يبين توغلهم في الكفر. ويبين أن الفاسد يحاول أن يقنع غيره بسلامة ما هو فيه، وانحراف من خالفه، لِيطْمَئن بكثرة سواد من معه من أهل الباطل. وهذا مُشاهد في جميع أنواع المعاصي.

ثم يخبر الله تعالى بحال أولئك المشركين يوم القيامة، وبما يُثبِت كذبهم، ويؤكد افتراءهم، ويكشف عمق ضلالتهم ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

فالأمر ليس كما يظنون، بل ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ فإن هؤلاء المفترون سيحملون أوزار أنفسهم، التي سماها الله تعالى بالأثقال ﴿أَثْقَالَهُمْ ﴾ لبيان حجمها وقوتها، بأنها أوزاراً عظيمة، من ثقلها عليهم، وليست بالأمر السهل. ومع هذا هناك أثقال أخرى سيحملونها ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ وهي أثقال من كانوا سبباً في صدهم عن سبيل الله تعالى. وأيضاً ستكون هناك مُسَاءلة لهم يوم القيامة ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ وهو سؤال توبيخ وتقريع وسؤال تنديم يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ على ما كان منهم من الكذب على الله سبحانه وتعالى، بأنهم كفلاء وزعماء لما يصيب من تبعهم من العذاب، جراء الإثم والأوزار.

وبعد البيان العظيم لأنواع الناس في الإيمان، وأقوال المشركين لإخراج المؤمنين عن إيمانهم وتصديقهم بنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وتكذيب الله تعالى لزعمهم بتحمل أوزار من تبعهم، ينتقل السياق الكريم إلى التنويه بشيء وطرف من قصة رسول الله نوح عليه الصلاة والسلام، تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وقوة للمؤمنين مما يلاقيه في دعوته من قومه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾ يا أيها النبي ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ لقد بعثنا نوحاً إلى قومه، وقد لبث فيهم مدة طويلة من الزمن بلغت ألف سنة إلا خمسين عاماً، ومع هذا ما آمن معه إلا قليل، ليبين الله تعالى طول المدة من الزمن التي قضاها نوح عليه السلام مع قومه، يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وشريعته، حيث مكث ألف سنة إلا خمسين عاماً في دعوته، ومع هذا كان أكثرهم مكذبين، بما يفيد: لا تيأس، ولا تحزن، ولا تهتم، ولا تغتم من كفر أكثر الناس، فلك فيمن سبقك من المرسلين مع أقوامهم أسوة تتأسى بها، وتزيل أحزانك بها ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾ فَلِظُلمِهِم أخذهم الطوفان بالغرق. والطوفان هو الشيء الكثير الذي يستحوذ على من طاف به، واحتواه. قال الزجاج رحمه الله تعالى: الطوفان من كل شيء: ما كان كثيراً، وطَيَّف بالجماعة كلها، فالغرق الذي يشمل المدن الكثيرة: طوفان، وكذلك القتل الذريع: طوفان، والموت الجارف: طوفان[1] وفي هذا تحذير من الإقامة على الشرك، فمها طال بهم الزمن فإن عقاب الله تعالى لا يرده شيء عن القوم الظالمين.

ومن دقائق البيان ما نقله وقاله ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن هذه الآية بينت مقدار عمره كُلّه، حكاه الماوردي. فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ فهلا قال:

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٥/٦)

تسعمائة وخمسين؟ فالجواب: أن المراد تكثير العدد، وذكر الألف أفخم في اللفظ، وأعظم في العدد. ومن مزيد الفوائد: قال الزجاج: تأويل الاستثناء في كلام العرب: التوكيد. تقول جاءني إخوتك إلا زيداً، فتؤكد أن الجماعة جاؤوا، ونقص زيد. واستثناء نصف الشيء قبيح جداً، لا تتكلم به العرب، وإنما يُتَكَلَّم بالاستثناء كما يتكلم بالنقصان. ولم يأت الاستثناء في كلام العرب إلا قليل من كثير[١] مما يدل على بلاغة القرآن في اختيار أسلوب عن أسلوب، ولفظ عن لفظ. فالاختيار فيه قوة للبيان، وبما يدل على أن القرآن مرجع للغة العربية.

ثم يخبر الله تعالى عن إنجاء نوح من الطوفان ومن معه من المؤمنين ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يخبر الله تعالى عن عنايته برسوله وبالمؤمنين ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ أنجينا نوحاً، ومن معه من المؤمنين في السفينة التي أمرناه ببنائها وتشييدها. وورد الإنجاء بأسلوب العناية، بأن أسند الإنجاء له مباشرة تبارك وتعالى ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ ﴾ فبعنايتنا وإرادتنا حصل الإنجاء لرسولنا نوح ومن معه من المؤمنين، فلم يكن باجتهاد منهم، بل بعناية خاصة مِنَّا له ولهم. ليفيد كذلك: هي عنايتنا بك أيها النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين. فلا خوف عليكم فيما لو أصبناهم بعذاب اليم شديد.

ثم يخبر الله تعالى بالهدف والغاية من ذكر قصة نوح عليه الصلاة والسلام وقومه، ومما أصابهم من الغرق ﴿ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فقد جعلنا قصة نوح عليه السلام وقومه، والعقوبة للمكذبين بحادثة الغرق، ونجاة السفينة ومن عليها آية وحجة وعلامة للناس. فإن عودة الضمير في كلمة ﴿ وَجَعَلۡنَٰهَآ ﴾ استوعبت تلك المذكورات وتنوعها، مما يفيد عظمة السياق في إعجازه البياني الذي أمد المستفيد بهذه الفوائد الدلالية التي استوعبت جميع ما هو متعلق بحادثة الطوفان. والمذكورات التي استوعبتها ﴿ وَجَعَلۡنَٰهَآ ﴾ جميع ما يتعلق بقصة نوح عليه السلام وقومه، كالسفينة، ونوح، والمؤمنين، والطوفان، وإغراق المكذبين.

﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨ ﴾

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/١٢٤-١٢٥)

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى نوحاً عليه السلام، وما كان من قومه المكذبين، وبيان ما أهلكهم الله تعالى به من الطوفان، وإنجاء الله تعالى لنوح والمؤمنين، يذكر الله تعالى طرفاً من قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع قومه، لتأكيد أن حال أكثر الناس هو الكفر. فقال تعالى ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ واذكر يا أيها النبي قصة نبي الله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ حين قال لقومه ناصحاً ومرشداً ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ تَوَجَّهُوا بعبادتك إلى ربكم وحده لا شريك له، وأخلصوا له العبادة والطاعة، بما يفيد اتركوا الأصنام واعبدوه وحده لا شريك له عَزَّ وجل ﴿وَٱتَّقُوهُ ﴾ وخافوا ربكم من أن تشركوا به شيئاً، فيحل عليكم العذاب، فأطيعوا ربكم فيما أمركم به، وامتثلوا لأمره ونهيه، ولا تعصوه ﴿ذَٰلِكُمْ ﴾ أي: أن عبادة الله تعالى وخوفه بتقواه عَزَّ وجل ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فهي الأفضل والأحسن لكم من الشرك ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إن كنتم تعلمون الذي ينفعكم من الذي يضركم بما جاءكم من العلم الذي أبانه وأوضحه لكم رسولنا إليكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام. مما يفيد أهمية التعقل، وأهمية العلم، والتفكر فيه وفي العاقبة، وتقديم النافع على الضار المدمر للإنسان في دار معاشه ودار معاده.

ثم يبين ويوضح لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام حقيقة ما يعبدون من الأصنام والأوثان من دون الله تعالى ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فأوضح وبين لهم ثلاثة حقائق عن أصنامهم: الحقيقة الأولى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا ﴾ فالمعبودات التي تتوجهون إليها من دون الله تعالى هي عبارة عن ﴿ أَوْثَـٰنًا ﴾ أي: أصناماً، مصنوعة بأيديكم، سواء من النحاس، أو الجص، أو من الحجارة. وبالتالي فإنها من حيث أصلها فهي مصنوعات. فكيف تعبدون مصنوعاً، وتتركون توحيد الصانع سبحانه وتعالى وعبادته وحده لا شريك له، وهو الذي خلقكم وخلق السماوات والأرض.

والحقيقة الثانية: ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ أي: تخترعون كذباً بصنعها وتعظيمها، وهي ليست كذلك، فأعطيتموها زوراً وبهتاناً ما هو لله تعالى من العبادة، وأنتم الذين اخترعتم هذا الكذب، بصناعتكم لها. والحقيقة الثالثة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ فأنتم تعلمون أن تلك المصنوعات التي صنعتموها وعبدتموها لا تستطيع أن تأتي إليكم بشيء من الرزق.

ثم يوجههم إلى أربعة حقائق، يلزمهم الأخذ بها. الحقيقة الأولى: أن يطلبوا الرزق ممن يملك الرزق ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ فاطلبوا الرزق الذي تسعون لتحصيله من الله تعالى، فهو الذي يرزقكم، لأنه الذي خلقكم وخلق الأرزاق كلها، فهو الذي يمدكم بالأرزاق. والحقيقة الثانية: توجهوا إلى الله بالعبادة ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾ توجهوا إلى ربكم بما شرع من العبادة، ولا تتوجهوا لمن لا يملك الرزق، فوحدوه بالعبادة وحده لا شريك له. والحقيقة الثالثة هي: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ ارفعوا الشكر إلى الله تعالى، الذي خلقكم، ويرزقكم. وورد الشكر عاماً ليستوعب جميع أنواع الشكر، القول باللسان، والاعتقاد بالجنان، والعمل بالأركان، اعترافاً وشكراً وثناء على الله تعالى بما أعطى، وبما أنعم. والحقيقة الرابعة: تحذير وإنذار ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فإنكم بموتكم عائدون إلى الله تعالى بالبعث من قبوركم، وأنكم ستبعثون بعد الموت، وتحاسبون على أعمالكم، وتُجزون بما كان منكم، فللمحسن الحسنى وزيادة، ولمن كفر جهنم وبئس المصير.

فتضمن التوجيه من إبراهيم عليه السلام إلى قومه بيان الحقائق لما هم عليها، وذلك بأسلوب التفنيد، الكاشف لحقيقة ضلالهم، من عبادة الأوثان، وإثبات بطلانها، وفساد فكرهم. ومقابل ذلك أبان وأوضح لهم الحقائق التي فاتت عليهم ويلزمهم الأخذ بها لتحقيق النجاة، وذلك بالبيان الواضح الذي يجب عليهم فهمه والعمل بمقتضاه، ليختم كلامه ووعظه لهم بالحذر والإنذار من مغبة ونتيجة الذي هم عليه من الفساد.

ثم يبين لهم نتيجة تكذيبهم وإصرارهم على الكفر إن لم يقبلوا دعوته ونصحه وإرشاده لهم ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ فإن كذبتم بما جئتكم به من الحق فلستم بأول من كذب المرسلين. ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ فليست أمة واحدة بل أمم كثيرة ممن كان قبلكم. فلستم بأول المكذبين. وبما يفيد ليس لي حق إلزامكم بما أَمَرَكُم به ربُكم، بل أنتم المسؤولون عن أنفسكم. وأن مسؤوليتي فقط هي البيان لكم بما أرسلني الله تعالى به ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ فواجب الرسول هو البلاغ، بما يفيد أن الذي على الرسول هو هداية الإرشاد والدلالة على الحق، وأن يكون بلاغه واضح مبين ﴿ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي الواضح الجلي، الذي تقوم به الحجة. وكل إنسان مسؤول عن نفسه.

وفي هذا البيان تطيب ومواساة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم إزاء ما يواجه من قومه المكذبين، وليكون درساً لكل من يدعو إلى الخير، بأن مهمته تنحصر في الإبلاغ والإرشاد، وليس هو مكلف بهداية الناس.

ومن براعة البيان أن السياق يحتمل أيضاً أن هذا القول ليس لإبراهيم عليه السلام، بل هو من الله تعالى للناس. قال الطبري رحمه الله تعالى: يقول تعالى ذكره: وإن تكذبوا أيها الناس رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فيما دعاكم إليه من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم، والبراءة من الأوثان. فقد كذَّبت جماعات من قبلكم رُسُلها فيما دعتهم إليه من الحق، فحل بها من الله تعالى سخطه، ونزل بها منه عاجل عقوبته، فسبيلكم سبيلها[١] ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وما على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم إلا البلاغ لكم ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ البلاغ الواضح الذي ينير لكم به الحق من الباطل، والصواب من الخطأ. وتقوم به الحجة. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام لقومه، يحتج عليهم لإثبات المعاد[٢] مما يبين قوة مساحة السياق لتستوعب قصة المقصوص قصته وهو إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والمقصوص عليه وهو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. وكلاهما وجهان صحيحان، ولا تعارض بينهما، وإنما هو دلالة على الإعجاز البياني في القرآن الكريم. فاستوفى النص الكريم دلالتين من غير حاجة لتكرار نصين لكل وجه. فسبحان الله تعالى الذي أظهر الإعجاز حتى في بيان كتابه القرآن العظيم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

ينتقل البيان الكريم إلى إثبات البعث بعد الموت، فاستهل الله سبحانه وتعالى ذلك بالسؤال والاستفهام الذي يستثير الذهن نحو حقيقة البعث، بما يراه الْمُخَاطَب من الظواهر المحسوسة، وهو أحد الأساليب في الاستدلال بالأدلة الحسية مما يشاهده الْمُخَاطَب، لإثبات المعاد الذي ينكرونه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أولم يعلم هؤلاء المنكرين للبعث كيف

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٧٦/١٨)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤١٩/٣)

يبدأ الله خلقهم من نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم تُنفخ فيه الروح، ثم وليداً، ثم رضيعاً وطفلاً وشاباً، ثم شيخاً، ثم يتوفاه أثناء تلك المراحل بالتقديم أو التأخير في الأجل، وبمثل ذلك مما يرون من الحيوان والنباتات، وسائر حركة الكون، وإعادة الليل والنهار بعد ذهابهما، وإعادة السحاب والمطر بعد ذهابهما، وإعادة اخضرار الأرض بالزرع بعد موتها؟ فكل شيء فيه دليل على القدرة الربانية، والحقيقة الدالة على البعث بعد الموت، وعلى عظيم قدرة الله عَزَّ وجل.

وبدأ التوجيه الكريم بقوله تعالى ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ الذي هو استفهام توقف وتدبر، واستنكار على أنهم لم يتدبروا، ليستدلوا بذلك على تحقق الحياة بعد الموت، وبالبعث والنشور للخلق. وسهولة ذلك على من بدأ الخلق سبحانه وتعالى. فأين عقولهم عن هذا التسخير الذي يرونه بأبصارهم؟ ويتعاملون معه في حياتهم.

وقد تقدم النص الكريم أداة الاستفهام المثيرة للرؤيا ﴿ أَوَلَمۡ ﴾ الذي يفيد لفت ذهن الْمُخَاطَب والمتعلم إلى المحسوس، ليستدل به على غيره من المحسوسات والمغيبات التي يتم إخباره عنها، وما يتعلق بها من المغيبات، وليرتقي بعقله في التحليل والاستنتاج. فهو استفهام استنكار وتعجب من جهلهم، وتغافلهم عن المحسوسات والحقائق الدالة على صدق ما يُخبَرُون به من المغيبات، وعلى رأسها البعث بعد الموت ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ فإن مَن كانت قدرته قد خَلَقَت الخلق، وتدبيره بتقليب أحوالها أمامكم، وإعادتها بعد اختفائها أمامكم، من الليل والنهار، والشمس والقمر، وحياة الأرض بعد جفافها، أليس في ذلك دلالة على قدرة الله تعالى على إعادة خلقكم بعد فنائكم؟ فإنه من باب أولى أن يكون قادراً على إعادة خلقكم بعد فنائكم.

وورد التوجيه الكريم بأن يجب أن يكون ذلك هو محط تأملكم لواقع نشأة الخلق وأحداثه، كما أورده بصيغة المضارع المستمر ﴿ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ﴾ ليفيد: استمرار تجدد بدء الخلق، الذي هو محطة النظر والتأمل حين بَدْئِهِ وإيجاده بعد أن لم يكن موجوداً. لِمَا في ذلك من العبرة والدلالة من تجدد الخلق في جنس الإنسان، وفي كثير من المخلوقات، إذ يذهب الذي انقضى عمره من الناس والحيوان والنبات، ويولد من يبدأ عمره، وكذلك تعاقب الأجيال، من جيل يذهب، وجيل ينشأ، فيبدأ غيره وهو ينظره ويعايشه، في تتالي وتعاقب عجيب، كما تذهب أمة، وتأتي أمة غيرها. وتموت أرض، ثم تحيا نفس الأرض بزرع آخر غير الذي قبل، ومتجددة بغير السابق الذي هلك واندثر. وكذلك يموت حيوان، ويولد غيره، في تجدد عجيب. ليتأكد به التأمل في الإعادة ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾ بتجديده بغيره، ليتأكد بذلك أن الإعادة على الله عَزَّ وجل يسيرة سهلة ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ فالإعادة يسيرة على الله تعالى، فإن الذي بدأ الخلق، لا شيء يمنعه من إعادته، فإن علو الإنشاء والبدأ يدل على سهولة ما دونه من الإعادة. فأين صعوبة إعادة الخلق بعد موتهم؟ إن خيال الصعوبة

هو فهم قاصر في العقول الناقصة القاصرة، التي لم تتدبر في بدأ الخلق وإعادته، والمبثوثة في الدنيا، بشواهدها التي يشاهدونها، ويعايشونها.

ومن دقائق السياق أنه بعد أن لفت البيان الحكيم الانتباه إلى مجمل الخلق لِتُبحر العقول في كثرتها، يقرر لهم أن إعادة البعث على ربكم سبحانه وتعالى سهل ويسير ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إن الذي بدأ الخلق بما ترون، وما يحدث فيه من التعاقب دليل وإثبات على أن البعث بعد الموت على الله تعالى يسير، فإنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء كما ترون من أدلة القدرة.

ومن دقائق البيان في أسلوب الاستثارة الذهنية أن جاء التوجيه بالرؤية مقترناً بأداة الاستفهام ﴿كَيۡفَ ﴾ فقال تعالى ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ ﴾ والتي أفادت التنبيه، وتوجيه الذهن للاعتبار، والتأمل والتفكر في بدأ الخلق. لأن إدراك الْمُخَاطَب لتلك الحقيقة، يستلزم منه أن يتأمل فيما يدور في الكون من متغيرات، وإعادة ما تغير إلى ما كان، كموت ما على الأرض من الأعشاب، ثم إعادة خلقها من جديد، وغياب الليل والإتيان به من جديد، ومثله النهار، ومثله السحاب، ونزول المطر. فكلها دلائل على القدرة الربانية. فهي دروس لمن تأمل وتدبر. مما يدل على أهمية التأمل في خلق الله تعالى، فإنها تُنشئ الإيمان، وتصحح الإيمان، وتقوي الإيمان. كما يفيد ويدل ذلك على أن دين الله تعالى قائم على الحقائق.

ومن الفوائد الأسلوبية في قوله تعالى ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ ﴾ أنها تلفت الانتباه إلى تقليب البصر والتأمل، وتقليب الفكر في الشيء، لتكتشف ما فيه من الحقائق المذهلة، وما فيه من الْحُسْن في التدبير والعطاء، وأن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، ليتفقه به الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأنه وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، ومعرفة الحق والباطل، والاستدلال به على ما غاب عن الإنسان. كما أن دلالة ﴿كَيۡفَ ﴾ أعطت المزيد عن حال الأمر المنظور إليه، ودلالته، وأن دلالة الرؤيا ﴿يَرَوۡاْ ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَب نفسه، بأن يتأمل ويقلب الفكر، ومن الناحية التربوية فإن نصوص القرآن الكريم تحمل مقاصد علاجية للواقع وللاعتقاد، وإنمائية لتنمية الخير والصلاح في النفس البشرية، ووقائية من أن يسلك الإنسان مسالك الشر في الاعتقاد والأخلاق وعموم الطاعات.

وفي تدرج نظيم ومنتظم، ينتقل التوجيه الكريم من صيغة المضارع ﴿كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ﴾ إلى صيغة الانتهاء بالفعل الماضي ﴿كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ ﴾ فانتقل من لفت الانتباه عن شأن التأمل في كيف يبدئ الله تعالى الخلق إلى التأمل في كيف بدأ الخلق سبحانه وتعالى، فيوجه جَلَّ جلاله عباده إلى السير في الأرض لأخذ العبرة بالتأمل والتفكر في بدء الخلق لهذه الأرض العظيمة المذهلة في تكوينها وفي

ومكوناتها، وفيما هو عليها، وما فوقها ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فامشوا في الأرض وتأملوا كيف بدأ الخلق. وورد الأمر بالسير ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ لأن السير في الأرض يثير التأمل، ويُطلِع السائر ويقربه ويُدنيه من المنظور الذي تنظره وتبصره العين من المخلوقات المختلفة في أشكالها وألوانها وأحجامها، من الأودية والجبال والسهول والهضاب، والحيوان، والمنازل، والأقوام، وغيرها مما هو مبثوث في طريق السائر، ليستثير عقل السائر نحو وجودها وبدئها قبل تكوينها، وإلى قدرة القادر التي لا تقاس على قدرة العاجز. فمخلوقات الخالق عَزَّ وجل تدل على عظمته وكمال قدرته عَزَّ وجل التي لا يحدها شيء، فهي لا تُحد بحد محدد. كما أن في السير مشاهدة ما لم تعتاد عليه عينه، وبصره وبصيرته، فيكثر شد الانتباه عما اعتاد عليه. مما يفيد أن السير للعاقل في الأرض مدرسة لزيادة الإيمان.

وورد التوجيه للمخاطبين في هذه الآية الكريمة بالنظر ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ بينما في الآية السابقة ورد بالرؤيا ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ لأن الأنسب مع الفعل الماضي، وفي المسير المتلاحق الخطى هو النظر. بينما الأنسب مع دلالة الفعل المضارع الذي يدل على التجدد هي الرؤية. لأن بين الرؤية والنظر عموم وخصوص. ولمزيد الفائدة: فإن الرؤية أعم، إذ تشمل وتعني الرؤية المتابعة للشيء في نموه أو تحوله من حال إلى حال، بينما النظر أخص في الأشياء القائمة، وهذا على الغالب في دقة الوصف. لأن رؤية الشيء تفيد المشاهدة المستمرة لحالات الشيء، ومتغيراته، كتطور تكوينه ونموه، فتقول رأيت الزرع وهو ينمو. ولا تقول: نظرت للزرع وهو ينمو. وتقول: نظرت للجبل، ونظرت للوادي. وتقول: رأيت الوادي باعتبار أن الرؤيا أعم. وهذا إذا قصد بالنظر نظر العين، وأما إذا قصد به نظر البصيرة، فإنه يُقصد به التأمل مع المشاهدة البصرية. ومن فوائد دلالات النظر ما ذكره وجمعه الراغب الأصفهاني: أن النظر تقليب البصر والبصيرة، لإدراك الشيء ورؤيته. وقد يُراد به التأمل والفحص. وقد يراد به المعرفة الحاصلة من بعد الفحص، وهو الرَّوِيَّة. يُقال نظرت فلم تنظر، أي: لم تتأمل ولم تَتَرَوَّ. ويقال: نظرت إلى كذا إذا مَدَدْت طَرفَكَ إليه، رأيته أو لم تره. ونظرت فيه إذا رأيته وتدبرته(١) فالرؤية تعطي دلالة القطع بالمشاهدة، وأما النظر، فقد تنظر جهة الشيء، ويقصر إدراك المنظور.

وذُكر عن الرؤية: أن الرؤية إدراك الْمَرْأى. والروية والتروية: التفكر في الشيء(٢) وذكر أبو هلال العسكري في الفروق: حَدَّ النظر طلب إدراك الشيء من جهة البصر أو الفكر. وذكر كذلك: إذا قُرن النظر

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٤٩٧)

(٢) المرجع السابق، ص (٢٠٨-٢٠٩)

بالقلب فهو الفكر في أحوال ما ينظر فيه، والنظر إذا قُرن بالبصر كان المراد به تقليب الحدقة نحو ما يلتمس رؤيته مع سلامة الحاسة[١] فلعل الرؤيا تفيد إدراك الشيء وتحولاته، بما يدل على معايشة الرائي للشيء المرئي، بالبصر والمشاهدة، وما يطرأ عليه من التحولات والتغيرات، بينما النظر، يكون في الحادث المنتهي قيامه وتكوينه، وتكونه.

وقد ورد منشأ الخلق وبَدْئِه في هذه الآية بصيغة الفعل الماضي ﴿ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ لأنه الأنسب للمسير، الذي يشاهد فيه السائر ما تم بدؤه، والانتهاء منه، بينما المقيم يشاهد التجدد الذي يحصل مكان إقامته. فَوَجِّهُوا أنظاركم إلى مبدأ نشأة الخلق، بينما في الآية السابقة ورد التوجيه بصيغة الفعل المضارع، إذ قال تعالى ﴿ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ﴾ فوجه التأمل إلى كيف يُبْدِئ الخلق الذي يتجدد أمام أبصاركم في إقامتكم، من الإنسان والحيوان والنبات، والليل والنهار، وتجدد السحب، وغير ذلك مما تتجدد في جنسه الحياة والحركة. وأما في هذه الآية الكريمة فالأمر متعلق بكيف بدأ الخلق، والذي يتناسب مع مسير السائر وتأمله فيما قد حدث وانتهى. وهذه والله من غاية الإعجاز في البيان، الذي يجزم سياقه أنه كلام الله تعالى بما فيه من الدقة التي لا يمكن أن تكون إلا من رب العالمين.

ووردت كلمة ﴿ ٱلْخَلْقَ ﴾ عامة، لتستوعب جميع ما ترونه من المخلوقات بتفاصيلها المختلفة والمتعددة. لتكون لكم آية وعبرة وزجراً عن الكفر وعن إنكار البعث. فأمر سبحانه وتعالى بالسير في الأرض لهدف وغاية وهو الاعتبار ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ فتأملوا كيف هي بداية النشأة، لتعرفوا منها كمال القدرة، وكذلك مآل من سبقوكم إليه ممن ماتوا قبلكم، ومَنْ أهلكنا من الأمم المكذبة للمرسلين، بما أصابهم من العذاب الذي حاق وأحاط بهم، فأهلكناهم بكفرهم.

فكل هذا التوجيه الكريم من الله سبحانه وتعالى لأنه لا يرضى لعباده الكفر عَزَّ في علاه، ولا يريده لهم، ولو أراده لهم لما بعث المرسلين، ولما عذب الكافرين وأهلكهم. وكلمة ﴿ سِيرُوا۟ ﴾ تفيد أهمية إنشاء السفر والسير للعبرة التي تحقق للإنسان مصلحته، بل تحقق له أعظم مصلحة في الدنيا والآخرة، وهي النجاة من النار، ودخول الجنة بالإيمان والاستسلام لله تعالى. وأفاد الأمر ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أهمية سبر أحوال الكون، وأحوال الأمم، وعقد الأسفار والبحث، من أجل الوصول للحقيقة التي تقوي الإيمان، وتُنجي العبد من النار، مما يدل على عظمة الإيمان وأهميته، وأنه جدير بأن يتحمل الإنسان المشاق والسفر من أجل أن يدركه ويأخذ به، ولو تكبد من أجله مشاق الأسفار، من أجل أن يدرك الإسلام الذي بتحصيله يحصل الخير العظيم،

---

(١) أبو هلال العسكري، ص (١٠٤-١٠٥)

والفوز بجنات النعيم. وكلمة ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ تبين أهمية التأمل والتدبر، والوقوف على ما يحقق الإيمان. وهي تفيد نظر البصر بالمشاهدة والمعاينة، وكذلك نظر البصيرة بالتأمل والتفكر والتدبر. مما يبين فضل الله تعالى في تمكين الإنسان من الحواس التي توصله إلى الحق ومعرفته، وإدراكه إدراكاً حسياً وقلبياً بعد توفيق الله جَلَّ جلاله.

وكلمة ﴿كَيۡفَ﴾ تستثير الذهن ليتصور الإنسان مَشَاهِد الكون في تقلبه وتغيره، وثبات الثابت، وتغيرات المتجدد، وحركة المتحرك، وهلاك الأمم وتغير أحوالها، وما حصل لها من النكاية والعذاب، فلفظة ﴿كَيۡفَ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور ويدرك الْمُخَاطَب بتحريك الذهن إلى ما يتحقق به قوة الإيمان والامتثال والطاعة لله العزيز الجبار. ولفظة ﴿كَيۡفَ﴾ لفظ استفهام، يتوصل به إلى الدليل من خلال حال السير في الأرض، فهو استفهام سيأخذ بصاحبه إلى مشاعر الإقرار بوحدانية الله تعالى، وكمال قدرته. وفيه التهويل من أحوال الأمم السابقة، ومتغيرات الحياة وتقلبها، وحال أمته فيما لو أصابها ما أصابهم، أي فكيف يكون حالهم؟ وهي تحمل كذلك استفهام التوقف والتعجب من دلالات الكون العظيمة، والتأمل لموقف سيمر به هؤلاء إن لم ينقادوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي ذلك استثارة للذهن بالتفكر في تبعية المآل، والتفكر في النتيجة. إن أسلوب القرآن العظيم يستثير العقول، والأفئدة، والمشاعر ليتحقق الخير للنفس المتأملة المستجيبة للموعظة.

ثم بعد أن قرر سبحانه وتعالى عظمته وقدرته في البدء والإعادة للخلق، وأنه على الله تعالى يسير، يُرَتِّب على ذلك تقرير النشأة الآخرة ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ ثم إن الله تعالى ينشئهم عند البعث نشأة أخرى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وهذا تقرير من الله تعالى بأنه على كل شيء قدير، بما يفيد منع العجز ونفيه مطلقاً عن أي شيء يريده عَزَّ وجل. وقد أظهر اسم الجلالة مرتين ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ لإفادة تعظيم شأنه عَزَّ وجل، وتقرير القدرة وكمالها. فهو تسلسل بياني عظيم في ترتيبه، ودقة كلماته وألفاظه، وبلاغة بيانه، وغزارة وعمق دلالاته، وإثارته للذهن، وتحريك القلب نحو تعظيم ما ساقه وبينه جَلَّ في علاه. فسبحان الله العظيم، وآمنا بكل ما جاء عن الله العزيز الحكيم.

ثم يقرر سبحانه لعباده بما يكون منه من العذاب وما يكون منه من الرحمة ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ فكل شيء يعود لمشيئته سبحانه وتعالى، وخص هنا ما يخص المغفرة

ووقوع العذاب، فإن ذلك عائد لمشيئته تبارك وتعالى. فهو الحاكم المتصرف، المتفرد بالحكم والجزاء، والثواب والعقاب، وهو الذي يحكم بما يريد، ولا معقب لحكمه، فحكمه هو عين العدل جَلَّ جلاله. فيغفر لمن يشاء ممن جاء بأسباب المغفرة، ويعذب من يشاء ممن جاء بالأسباب الموجبة للعذاب. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فيعذب من يشاء منهم على ما سلف من جرمه في أيام حياته. ويرحم من يشاء منهم ممن تاب وآمن وعمل صالحاً[١] ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ فالمرجع إليه جميعاً، فيحاسبكم على ما كان منكم ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ وما أنتم يا أيها الناس بقادرين على تعجيز الله ربكم عنكم، بأن تفلتوا منه ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ فلن تفلتوا وتمنعوا عنه، سواء كنتم في الأرض، أو كنتم في السماء، فليست هناك قوة ولا مانع يمنعكم منه عَزَّ وجل ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ وليست هناك قوة من دون الله تعالى تمنعكم وتنصركم من العودة إليه، ومحاسبتكم على ما كان منكم. فمن كان يعتقد أن له ولي من دون الله تعالى ينصره، ويمنعه من عذابنا؛ فإن حسبانه خاطئ، فلا قوة له، ولا لأحد أن يمنعكم وينصركم، ويحول بينكم وبين العودة لربكم سبحانه وتعالى، فيحاسبكم ويجازيكم بما كان منكم، من خير أو شر. ليفيد التعليم، والتحذير، والتوبيخ لمن كان هذا اعتقاد وفهمه. ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فهو نفي قاطع، وحكم جازم.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى بأن العذاب واقع بمن كفر بحجج الله تعالى، وكذب وأنكر لقاء الله عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فإن الذين كفروا بالله تعالى، وأنكروا الحجج والأعلام والبراهين التي جاءت بها الرُّسُل، وأنكروا لقاء الله تعالى، فكذبوا بالبعث والحساب والجزاء، فإن ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي ﴾ فأولئك المكذبون بالآيات من الحجج والبراهين، وأنكروا البعث والحساب والجزاء، أولئك هم الذين وقع فيهم وعليهم اليأس، فلا نصيب لهم من رحمة الله تعالى وعفوه وجنته، وهم الذين وقع فيهم وعليهم اليأس، خاصة عندما يرون عذاب الله تعالى بأنه واقع بهم لا محالة ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: أولئك الكافرون لهم عذاب موجع، وشديد في أثره وألمه عليهم. مما يفيد المزيد من التحذير بعد كشف المصير، وتأكيد الرجوع إليه سبحانه وتعالى، فاحذروا من ذلك اليوم بالتوبة والرجوع إلى هدي ربكم وطاعته، بما جاءكم عن طريق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، الذي هو خاتم الأنبياء والمرسلين.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٧٨/١٨)

ومن دقائق البيان تكرار اسم الإشارة مرتين: الأول: عند اليأس من الرحمة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ والثاني: عند تحقق العذاب فيهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ بما يفيد تأكيد تعيينهم، بأنهم، هم الكافرون المكذبون بآيات ربهم، والمنكرون ليوم البعث، والذين لهم العذاب الأليم.

ثم يُخبر الله تعالى بجواب قوم إبراهيم عليه السلام، بأن خاطب بعضهم بعضا بقتله، فتواطؤوا على ذلك، بما يفيد أنهم لم ينتفعوا بما خاطبهم به رسول الله وخليله ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فلما أقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام على قومه البرهان الساطع، الذي يُبْطِلُ شركهم، فقد عَزَّ عليهم ترك معبوداتهم من الأصنام، وما كانوا فيه وعليه من الباطل والكبرياء والمكابرة ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ اتخذوا فيه قرار القتل المباشر، أو إحراقه برميه في النار. فتواطأوا على حرقه ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فرموه في النار، فقال الله تعالى للنار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم كما جاء في سورة الأنبياء ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ فأنجاه الله تعالى منها. ومع أن في نجاته آية عظيمة إلا أنهم لم يؤمنوا لشدة كبريائهم واستعلائهم على الحق. بما يبين خطر الكبرياء على الإنسان.

وفي ختام هذه الآية المباركة أكد الله تعالى العبرة، والحجة القوية الناصعة لمن مبدأه التصديق بالحق، حيث قال عَزَّ وجل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ إن في إنجاء الله تعالى لإبراهيم من النار آيات من الحجج والبراهين الظاهرة لمن يقبل الحجة فيؤمن بها وبدلالاتها، وقد تم ذكر الحجج بصيغة الجمع ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ لأنها فعلاً آيات متعددة ومتظافرة، فالإنجاء آية، وكونها لم تحرق منه شيئاً آية، وكونها كانت عليه برداً وسلاماً آية، وفي تأكدهم من إشعالهم النار آية، وفي فقدها لخاصية الإحراق آية، وبما يفيد أن خاصية الشيء هي هبة من الله تعالى، فإن الله تعالى قادر على إخلاف الخصائص للأشياء، فإن خاصية الأشياء هي بتقدير الله تعالى، وهي آيات في كل شيء وخاصيته. فإن الذي منع عن النار خاصية الإحراق، قادر بأن لا يجعلها نعمة للوقود، والطبخ والتدفئة.

وكذلك أفاد الجمع للآيات ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ التفخيم والتعظيم لها، لأنها فعلاً آيات لمن تبصر فيها، فانتفع بها. فهي آيات واعظة ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فالمعتبرون بها هم المؤمنون الذين يتعظون بما يرون من المواعظ، وهم الذين قلوبهم تقبل الحق، وتترك الباطل عند رؤية الآيات، وأما المستكبرون فيمتنعون لِمَا في قلوبهم من

الاستكبار. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فإنها لأدلة وحججاً لقوم يُصدِّقون بالأدلة والحجج، إذا عاينوا ورأوا[1] فهي آيات ﴿ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴾ لقوم يقبلون الإيمان بالحقائق. وأما مَن كان مؤمناً فإنما يزداد بها إيماناً، فَقَبُولَهم ذلك زادهم به إيماناً، فيكون المعنى: بأنها آيات لمن قلوبهم تقبل الحق ولا تكابر، فتؤمن به. لينتفي بها العصاة، المتطاولون، المستكبرون، الذين يستعصون على الحجج والبراهين، مكابرة بأنفسهم عليها، فهؤلاء لا يؤمنون مهما كانت الآيات.

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ثم يخبر الله تعالى بما رد به إبراهيم عليه السلام على قومه الذين كفروا ولم يؤمنوا ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ فأوضح إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه، ناصحاً وموجهاً لهم ومبيناً وكاشفاً لمنهجهم الخاطئ في اتخاذهم الأوثان هو من أجل تحقيق مبدأ المودة المبنية على المجاملة الكاذبة بينهم. وقد ورد النص الكريم بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ التي تفيد قصر وحصر التوافق والتواطؤ بينهم في اتخاذ الأوثان هو بسبب علة المودة التي يجاملون بها بعضهم بعضاً. فاستحسنوا ذلك، بما يفيد نفي القناعة الحقيقية النابعة عن الصدق، واليقين بما يقومون به من عبادة تلك الأوثان ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ فإنما اتخذتم هذه ﴿ أَوۡثَٰنًا ﴾ أي: الأصنام معبودات من دون الله تعالى ﴿ مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ تتواردون وتتواصلون بينكم عليها من أجل تحصيل التواد، والتحاب بينكم مجاملة لبعضكم البعض، وليس عن حقيقة وقناعة، بل مجاملة، تتجاملون بها بينكم. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: قال إبراهيم لقومه: أي: للتواد بينكم، والتواصل

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/٣٨١)

لاجتماعكم على عبادتها، وللخشية من ذهاب المودة فيما بينكم إن تركتم عبادتها[١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: أي: ما اتخذتم أوثاناً إلا لأجل مودة بعضكم بعضا. ووجه الحصر أنه لم يبق لهم شبهة في عبادة الأوثان بعد مشاهدة دلالة صدق الرسول الذي جاء بإبطالها، فتمخض أن يكون سبب بقائهم على عبادة الأوثان هو مودة بعضهم بعضاً، الداعية إلى إباء المخالفة[٢] مما يبين خطورة المجاملة في الحق لتحصيل المودة من الممانعين لترك الأوثان. فقدموا طاعة الأعيان على طاعة ربهم ورب الأعيان، فخسروا الديا والآخرة معاً.

ثم يبين عَزَّ وجل مساحة الزمن القصيرة التي تحصل فيها هذه المودة، بأن مبلغكم فيها محصور ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ثم تنقطع، ولا تنتفعون بها في الآخرة، بل تتلاعنون بينكم بسببها ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ حينها تتبرأ الأوثان من العابدين لها، لأنها لم تطلب منهم ذلك، بل أنتم الذين اخترعتموها وعبدتموها، ثم يتبرأ القادة من الاتباع، ويلعن الاتباع القادة الذين زينوا لهم عبادة الأوثان، وشجعوهم عليها ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ وهو الدعاء بالطرد من رحمة الله تعالى بسبب غواية بعضكم لبعض، بما أغريتم أنفسكم بالتواد بينكم لها، مجاملة لبعضكم البعض. بما يفيد أنهم يدركون خطأ عبادتها، ولكن حتى لا يُقال عن فلان أنه ترك ما كان عليه الآباء، فيجامل لتحصيل المودة من بعضهم البعض، حتى لا يُكره ويُنْبَذ منهم. وبالتالي أدركوا صحة نصح رسولهم إبراهيم عليه السلام لهم بعد فوات الأوان.

فإن العلة في امتناعهم هو ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهذه علة الكفر، والامتناع عن الحق الذي عرفوه من رسولهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام. فتقديم المجاملة وطلب مرضاة الناس على مرضات الله تعالى تُهلك وتدمر الإنسان، سواء في الصغائر أو الكبائر. كمن يجامل غيره على التهاون في بعض العبادات، أو في الغيبة والنميمة، وفي غير ذلك مما لا يمكن حصره، فهؤلاء تجاوزا كل شيء إلى مجاملة بعضهم لبعض في الكفر.

ثم يخبرهم رسولهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن موردهم في الآخرة هو النار وبئس المصير ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ فالمكان الذي ستأوون إليه يوم القيامة هو النار، مكاناً ومقراً لكم، فليس لكم غيره أبداً. ثم يخبرهم بأنه لا ناصر لهم في الآخرة ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ فلن تنصركم آلهتكم من الأوثان، ولا أعوانكم ولا الرؤساء والكبراء والزعماء. فلا ناصر في ذلك اليوم لأحد، ليجزيكم الله تعالى بما تستحقون من

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٩٨/٤)
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦٧٨/٨)

النار التي هي مأواكم وبئس المصير. مما يفيد أن عليكم أيها الناس الاعتبار بما حصل وسيحصل في الآخرة لمن يكذب بما جاء عن الله تعالى. فاعتبروا بالأمم التي كذبت المرسلين، ومنهم قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فخذوا العبرة، وأطيعوا محمداً رسول الله إليكم، صلى الله عليه وسلم. وإياكم وأن تجاملوا بعضكم بعضا في الحق، فإنه يوم القيامة يلعن بعضكم بعضاً، فاحذروا واتعظوا بمن كان قبلكم. فقد فاتتهم العودة، ولم يبق إلا تحصيل الجزاء بالعذاب الأليم الشديد.

ثم يخبر الله تعالى بتصديق لوط لإبراهيم عليهما السلام ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فَصَدَّقَ لوط إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وآمن به رسولاً من عند الله تعالى، واتبع ملته. قال ابن كثير رحمه الله تعالى وغيره: إنه ابن أخي إبراهيم. يقولون هو: لوط بن هاران بن آزر. يعني لم يؤمن به من قومه سواه، وسارة امرأة إبراهيم الخليل[١] وقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فإنني عزمت على ترك ديار القوم الكافرين، ومتجهاً إلى بلاد الشام.، ولَمَّا ظن البعض أن القول للوط عليه السلام، أوضح الكثير من العلماء أن القول لإبراهيم عليه السلام. قال قتادة رحمه الله تعالى أن القول لإبراهيم وذهب معه لوط عليهما السلام. فإنني عزمت على ترك ديار القوم الكافرين، متجهاً إلى بلاد الشام المباركة. قال النخعي وقتادة رحمهم الله تعالى: الذي قال إني مهاجر إلى ربي هو إبراهيم عليه السلام. وقال قتادة رحمه الله تعالى: هاجر من كوثا، وهي قرية من سواد الكوفة إلى حران، ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط، وامرأته سارة[٢] وقول إبراهيم عليه السلام بأن هجرته إلى ربه ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: من أجل طاعة وعبادة ربي، فتكون هجرته بأمر وإذن من الله تعالى.

ثم وصف إبراهيم ربه تبارك وتعالى بقوله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فوصف ربه سبحانه وتعالى بما يناسب المقام ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في كل شيء، ومنها العزة والانتقام والقهر والغلبة. وثاني الوصف لله تعالى بأنه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وبكمال الحكم والعدل، وأنه هو الذي يضع الأمور مواضعها، ويُنزلها منازلها الحقيقية. فأعطى إبراهيم عليه الصلاة والسلام غيره أدب الوصف لله عَزَّ وجل، وأخلاق الطاعة، ومنهج التعريف.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٢٠/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٨٤/١٨)

ثم يخبر الله تعالى بما امتن به على رسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام من المناقب والمفاخر، إذ جعل في ذريته موارد الهداية والرحمة والسعادة للبشرية جمعاً، حيث اصطفاهم عَزَّ وجل بالنبوة المتعاقبة في ذريته التي خُتمت برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فمن كرم الله تعالى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد أن هاجر من بلاد العراق إلى الشام، ومعه لوط وزوجته سارة فإن الله تعالى أقر عينه بما امتن عليه بأربع عطايا: العطية الأولى: وهي الولد ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ فوهب الله تبارك وتعالى لإبراهيم إسحاق، ومن ولد إسحاق يعقوب عليهم الصلاة والسلام. وورد العطاء من الله تعالى بخصوصية وصفة الهبة ﴿ وَوَهَبْنَا ﴾ وهو العطاء الكائن من عند الوهاب سبحانه وتعالى بصفة الإكرام والتفضل، بما يفيد تعظيم الامتنان بهذا العطاء والإكرام والتفضل ابتداء، ليدل ذلك على التكرمة والتفضيل. والوهب هو: إعطاء الشيء بلا عوض. ومن الإكرام لإبراهيم عليه الصلاة والسلام أن أضاف سبحانه وتعالى العطاء له عَزَّ وجل ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ ﴾ ومن الفوائد كذلك في قوله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ما يدل على أن ولد الولد في منزلة الولد، حباً ورعاية وعطفاً ونفقة وخدمة وعوناً. لأن الله تعالى عطف يعقوب على إسحاق، وإسحاق هو والد يعقوب، ليفيد أن ولد الولد في منزلة الولد. كما أفاد البيان أنه يتحقق ذلك في أثناء حياة إبراهيم عليه السلام.

والعطية الثانية: أن جعل النبوة وإنزال الكتاب في ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهذا عطاء عظيم بهذا التخصيص من النبوة والكتاب. وبالتالي فإن جميع الأنبياء من بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام محصورون في ذريته فقط. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته. فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان أخرهم عيسى ابن مريم، فقام في مَلَئِهِم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله تعالى من صميم العرب العرباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه عليه الصلاة والسلام[1]

ومن مناقب إبراهيم أنه خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام. وأما الكتاب فقد ورد مفرداً ﴿ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ بالرغم من تعددها، فهناك: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن العظيم، لأن المراد به الجنس، وليتبين أنها جميعاً من الله تعالى فهي بمنزلة الكتاب، في أهدافها، ورحمتها بمن أُنْزِلَت عليهم، بما يثبت أن تعددها لا يعني الاختلاف

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٢٢/٣)

في جوهرها، بل التوافق وإن اختلف نوع الشرائع. وهذا من دقائق مفردات القرآن العظيم، الذي هو خاتم الكتب والمهيمن عليها، والناسخ لها، كما أن رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين.

والعطية الثالثة: أن تفضل الله تعالى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالأجر في الدنيا ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ من النصر، والعزة، وإخراجه من النار، فكانت عليه برداً وسلاما، فنصره الله تعالى على أعدائه، ورزقه كريم الذكر والسمعة، وقد ذكره وامتدحه سبحانه وتعالى في كتابه القرآن الكريم، وذكره كذلك في التشهد في صلاة المسلمين، وكثرة النسل، وجعل الله تعالى النبوة والكتاب في ذريته، فلا نبي بعده خارج عن ذريته عليه الصلاة والسلام. فهو إنعام وإكرام وثناء في الدنيا ما بقية الحياة فيها. ثم يستمر الإكرام في الآخرة له عليه الصلاة والسلام بالعطية الرابعة.

والعطية الرابعة: الحكم له بأنه في الآخرة واحد من الصالحين من عباده ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وأما في الآخرة فمنزلة إبراهيم عليه السلام، أنه واحد من الصالحين، الذين هم أولياء الله تعالى المتقين، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه. وفي كونه واحد منهم دليل على كثرة الصالحين المخصوصين بصفة وسمة الصلاح. اللهم اجعلنا منهم ومعهم بمنك وكرمكم ووالدينا وأهلينا وذريتنا والمسلمين أجمعين يا رب العالمين.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

ثم ينتقل البيان العظيم من شأن رسالة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه إلى شأن إرسال لوط عليه الصلاة والسلام إلى قومه، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: وأرسلنا لوطاً حين أنكر على قومه أهل قرية سَدُوم على البحر الميت، ما كانوا عليه من الفاحشة. فاذكر يا أيها الرسول للناس نبأ نبي الله تعالى لوطاً عليه السلام في مخاطبته ونصحه لقومه، إذ بدأهم بسؤال تقريري على ما هم عليه من الفاحشة، واستنكاره وتوبيخه لهم، واعتراضه على مخالفتهم لمنهج سائر من سبقهم من الأمم السابقة ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فيقررهم بما هم عليه من الفاحشة ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ﴾ أي تفعلون وتمارسون ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ وفي تسميتها لهم بالفاحشة ما يفيد الإنكار والتوبيخ، ومواجهتهم بفحشهم. مع تقرير أمور أخرى كقطع الطريق، وإتيان المنكر في مجالسهم: فأولها هو: إتيان ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ وهي فاحشة اللواط، وفي تسميتها بالفاحشة ما يدل على عظيم جرمها، لأن الفاحشة تُطلق على ما اشتد وعظم قبحه من الأفعال والأقوال، وما ينفر منه الطبع السليم، والعقل الرشيد. فضلاً عن تحريمه.

والثاني: أنه ما سبقهم بهذا أحد من العالمين، فهو فُحْش مخترع ومبتكر منهم ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فهي حادثة جديدة مخترعة لم يعملها قوم من السابقين قبلكم، وفي قوله ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ نفي تام بأنه لم يعمل هذه الفاحشة غيركم، فأنتم أول من اخترعها. فهو نفي عام، ونفي قاطع بأنه لم يعملها أحد من المخلوقين قبلكم، لأن كلمة ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تشمل جميع العوالم، فلم تعملها حتى أجناس الحيوان والدواب. فكيف تخترعون فاحشة ما سبقكم إليها أحد من العالمين، مما يفيد الإنكار والتوبيخ والزجر.

ثم عدد عليهم عظيم مخالفاتهم التي تتنافى مع الفطرة السوية ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فأول أعمالكم الْمُنْكَرَة، هي: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ فبعد التعريض لهم بإتيان الفاحشة كما في الآية السابقة ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ انتقل إلى التصريح لهم، بتعيين نوع الفاحشة من بين جميع فواحشهم، لتعظيم جرمهم ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ إذ تقضون

إربكم وشهوتكم مع الرجال؛ تاركين ما زَيَّنَهُ الله تعالى لكم ولجنس الرجال من النساء، فعدلتم عَمَّا خَلَقَ اللهُ لكم من النساء إلى الرجال، ومن جميل أدب البيان أنه تم البيان عن حقيقة الفاحشة بتوجيه مملوء بالإفصاح الذي توشح بالأدب العميق، وحفاوة مكارم الأخلاق، بما يفيد أهمية الأدب في مثل هذه الأمور. فإن هذا الفعل هو إسراف بالتعدي، لأنكم تجاوزتم الحد من الحلال إلى المبالغة في إتيان الحرام، فقد تجاوزتم ما هو محله فطرياً من النساء، إلى ما يتنافى مع الفطرة والعقل ومكارم الأخلاق.

وثاني أعمالكم المنكرة القبيحة، هي: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وتقطعون الطريق، بالاعتداء على المارين في الطرق العامة، بإكراههم على الفاحشة، ونهب أموالهم،. فقطع الطريق فساد عظيم أياً كان نوعه، فكيف إذا كان بفعل الفاحشة بمن يمر بالطريق، فإن ذلك أشد وأرذل. وثالث أعمالكم المخزية ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ وهو إتيان أصناف المنكرات داخل نواديهم من غير تحديد لها، لبيان كثرتها وتنوعها. ونواديهم هي: مجالسهم. وقد أورد الله تعالى ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ عاماً ليشمل الفواحش من القول والفعل، من غير تخصيص لنوعه ودرجته وكيفيته، مما يدل على أنهم لا يتورعون عن أي شيء من الفواحش في نواديهم، ومن ذلك إتيان فاحشة الرجال في مجالسهم، وتزيينها، والتفاخر بها. وورد الإتيان بصيغة الجمع ﴿وَتَأْتُونَ﴾ ليدل أن ذلك هو الشائع في رجالهم، والغالب عليهم، بأنهم جميعاً على هذا النهج الفاسد.

فكان جواب قوم نبي الله لوط عليه السلام هو ما ذكره الله تعالى عنهم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فلم يكن عندهم الجواب الحصيف، الذي يستطيعون الرد به على نبيهم لوط عليه الصلاة والسلام ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ فعجزوا عن محاجة رسولهم غير أن ﴿قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أرسل وأحضر لنا عذاب الله إن كنت قادراً، وصادقاً في كلامك وفي ترهيبك لنا بعذاب الله تعالى. مما يفيد التحدي الدَّال على التمادي في الكفر، والعناد.

فحينها طلب لوط عليه الصلاة والسلام من ربه تبارك وتعالى أن ينصره عليهم ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: بإنزال العذاب عليهم، لعنادهم وتكبرهم، واستخفافهم برسول الله،

وبعذاب الله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ والمفسد هو الذي يُضاد الصلاح والاستقامة، فلا يُصلح، بل يبادر بهدم الإصلاح، ورفضه، وإقامة الفسق وإتيانه، وإعلائه، وتشجيعه.

فاستجاب الله تعالى لنبيه ورسوله لوط عليه الصلاة والسلام بما دعا وطلب من ربه عَزَّ وجل، بأن ينصره على القوم المفسدين، فيذكر الله تبارك وتعالى مجيء الملائكة إلى لوط، مروراً بإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، لإنزال العذاب بقوم لوط كما أمرهم به ربنا تبارك وتعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ فعندما جاءت الملائكة المرسلة من الله تعالى بالبشرى لإبراهيم عليه السلام بالولد، وهما إسحاق ويعقوب، ذكرت له أنهم مُهلكوا قوم لوط الكافرين الفاسقين ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ﴾ والبشرى هي الإخبار بما يسر الْمُبَشَّر به ﴿ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ عازمين على إهلاك أهل هذه القرية التي هي سَدُوم قرية قوم لوط. ثم أخبرت الملائكة بعلة وسبب هذا الإهلاك ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ فأهل هذه القرية اتصفوا بالظلم. فشملت دلالة الظلم ما كانوا عليه من الكفر بما جاءهم به رسول الله تعالى لوط عليه الصلاة والسلام. وارتكابهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، وقطع الطريق على الناس، ومزاولتهم للمنكر في مجالسهم. وفي هذا نصرة لنبي الله لوط عليه السلام؛ عندما قال بعد كفرهم وعنادهم ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾

وهنا أراد إبراهيم الخليل أن يستوثق من الملائكة عن شأن ابن أخيه لوط عليهم الصلاة والسلام ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ فبادرهم إبراهيم بالسؤال عن شأن لوط عليهما الصلاة والسلام ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ أي: كيف سيكون شأنه مع إهلاك القرية وهو مقيم فيها؟ فطمأنته الملائكة ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ نحن أعلم من غيرنا بمن في القرية من الظالمين ومن المؤمنين. وأفادت ﴿ أَعْلَمُ ﴾ أنهم على كامل الدراية من ربهم، بمن يستحق العذب، ممن هم عن العذاب مُبعدون.

ثم أكدوا إنجاء لوط عليه الصلاة والسلام ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ لتحصلن له النجاة، وجميع أهل بيته إلا زوجته فإنها ستكون مع ﴿ الْغَابِرِينَ ﴾ أي: الباقين

في القرية التي سيحل وينزل بها العذاب. مما يبين أن لكل نفس ما كسبت. وفي هذا الإخبار من الملائكة بأنهم على علم شامل بهذا الشأن، وأنهم مأمورون بما أمرهم الله تعالى به. وكذلك عندما قالوا ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ بصيغة المبالغة فيما هم عليه من العلم، ليتأكد بذلك أن كمال علمهم بتفاصيل القرية وأهلها، وموعد العذاب حاصل لهم ممن هو أعلم منهم ومن غيرهم، إنه من علّام الغيوب سبحانه وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى بانتقال الملائكة من جهة إبراهيم عليه السلام إلى لوط عليه السلام ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًاوَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ فعندما جاءت الملائكة إلى لوط عليهم السلام، لم يعرف ابتداء أنهم ملائكة مرسلون من الله تعالى ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ فحصل له اضطراب، إذ ﴿ سِيٓءَ بِهِمْ ﴾ أي: شق عليه مجيئهم، فساءه مجيؤهم، لأنهم جاؤوا على صورة البشر، فخشي عليهم من قومه الذين يعملون الفواحش، وهو لا يعلم بأنهم ملائكة؛ قد أرسلهم الله تعالى، وكانوا في أجمل الصورة البشرية ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أي: ضاقت نفسه وطاقته وحيلته في تصريفهم عن قومه، وحمايتهم من أن يطلبوهم للفاحشة، لأنه لا يستطيع بمفرده مقاومة قومه. فضاق وسعه لعدم قدرته على تحقيق ما يريده. وهنا طمأنته الملائكة، بأن عَرَّفُوه بأنهم رُسُل من الله تعالى ﴿ وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ لا تخاف من الحاضر والقادم، ولا تحزن على ما فات، وما كان من قومك من الفسق. ومن جليل البيان أن نهوه عن أمرين مُغْلِقين مختلفين. أحدهما: الخوف ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ وهو متعلق بالحاضر والقادم. والثاني: متعلق بالماضي ﴿ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ والحزن متعلق بالماضي. فطمأنوه بما يجعله قرير العين والفؤاد، ثم زادوه تطمين بالنجاة مما سيصيب قومه من العذاب ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ فنحن نتولى أمر إنجائك وأهلك مما سيحل بقومك ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ فإنها مع القوم المقبورين. الباقين في القرية التي سيحل وينزل بها العذاب. مما يبين أن لكل نفس ما كسبت، فلا نجاة لها أبداً بالرغم من أنها زوجة رسول الله لوط عليه الصلاة والسلام.

ثم يزداد البيان من الملائكة بما يُطمن نبي الله لوط عليه السلام ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ أنا نحن معشر الملائكة مأمورون من ربنا أن نُنَزِّل

على أهل سدوم ﴿ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ عذاباً شديداً مؤلماً من السماء. مبينين سبب ذلك العذاب ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ لخروجهم عن الحق بأعمالهم المذكورة سابقاً. وقد ورد في سورة هود تفصيل ذلك، بأنه لما جاء قضاء الله تبارك وتعالى بعذابهم وهلاكهم ﴿ جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ جعل الله تعالى عالي القرية سافلها، أي أن القرية انقلبت انقلاباً، فأصبحت أعالي البيوت سافلاً، وذلك لانقلاب القرية بهم ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ وأرسل الله تعالى عليها من السماء ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي: حجارة من طين، لأنه قيل من معاني ﴿ سِجِّيلٍ ﴾ شديد صلب، وصفة هذا الطين من حيث الشكل ومن حيث صفة الوقوع فإنه ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أي: جُمِع فَجُعِل حجارة متتالية، متتابعة، فيتبع بعضها بعضا، أي: موضوع بعضه على بعض، وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى دلالة فقهية من ذلك، بأنه: دليل على أن من فعل فعلهم، فَحُكْمُهُ الرجم[1] وقد وصف الله تعالى نزول تلك الحجارة من السماء بالمطر، وسواء في كثرتها أو في تتابعها، ليتبين شدة ذلك العذاب، الدال على شدة كفرهم، وكذلك شدة فسادهم ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي مُعَلَّمَة، عليها علامة من عند الله تبارك وتعالى، فهي مُعَدَّة عند الله عَزَّ وجل، إيذاناً بنفاذ أمره، وشدة عذابه سبحانه وتعالى لهم، وإمعاناً في بُغض اللهِ تعالى لهم، وإهانة لهم، ولِمَا كانوا يعملونه من الفاحشة وقطع الطريق، وإتيان الفواحش في نواديهم. مما يبين أن هذا جرم عظيم، وأن من فعل ما فعله قوم لوط فقد ارتكب فاحشة عظيمة مقيتة. وفي هذا إنذار لمن بعدهم عن هذه الأخلاق والأعمال الرديئة.

ثم يخبر الله تعالى بأنه جعل دمارها عبرة وعظة لغيرهم ممن يعتبر بها ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ولقد أبقينا من القرية دلالات وعلامات واضحة المعالم من آثار ما وقع بهم من العذاب ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ففيها آيات ومواعظ للقوم الذين حين يرونها يعتبرون، فيحصل لهم المزيد من التعقل، لأن الذي يعتبر هو الذي يعقل الأمر، ويربط عليه، متمسكاً بما كان فيه من المواعظ والعبر، فيلزم ويأخذ بما فيه من الحق، ويجتنب ما فيه من الباطل. وبما يفيد أن الذي لا يعقل فلن ينتفع بالآيات، ولكي يعرف الإنسان أهو من القوم الذين يعقلون أو من القوم الذين لا يعقلون. فإنه ينظر في شأن نفسه، فإن عقل فإنه من القوم الذين يعقلون، وإن لم يعقل فهو من القوم الذين يجهلون.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩/٥٥)

ومن دقائق البيان الكريم أن الآيات التي فيها قد استوفت التأثير بالعبرة لعموم القوم الذين يمرون عليها وهم يعقلون، فإن من قوة تأثيرها أنه لو تأملها قوم كثيري العدد لتأثروا بها إن كانوا من أهل التعقل، بحيث يُجمِعُ من رآها أنها موقع عبرة وتأثير. وفي تخصيص العقلاء، لأنهم الذين إذا رأوا ما يُوجب الحق اتبعوه، بعكس السفهاء، الذين لا يتعظون من العبر والمواعظ والأحداث، وإنما يتبعون أهواءهم والشيطان، ويزينون لأنفسهم ما يهونه من الباطل. مما يفيد أهمية التعقل، وعدم الاسترسال مع الشيطان والأهواء والأدواء. وأهمية الاتعاظ بالغير، فإنه منهج العقلاء، وأهمية سؤال الله تعالى التوفيق والهداية والثبات عليها.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

وينتقل سياق الوعظ إلى بيان قصة أهل مدين مع نبيهم شعيب عليه السلام ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ وشعيب هو بن ميكيل بن يشجر، وتطلق مَدْيَن على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز، وهم أصحاب الأيكة[1] قال قتادة: مدين: ماء، كان عليه قوم شعيب، وقال: مدين هو ابن إبراهيم الخليل لصلبه[2] ووصَفَهُ اللهُ تبارك وتعالى بأنه ﴿أَخَاهُمْ﴾ كما وصف رُسُلَهُ هود وصالح من قبل، بأنهم إخوة لأقوامهم، فهو أخوهم، باعتبار أنه بشر مثلهم؛ من ولد أبيهم آدم، ويجوز أن يكون أخاهم، لأنه من قومهم. وكذلك الإفادة بأنه كان من تعامله وأخلاقه معهم بمنزلة الأخ لهم، فقومه يعرفونه، ويعرفون سيرته بأنها سيرة طيبة، إذ جعلته سيرته وعلاقته منهم بمنزلة الأخ. وابتدأ شعيب حديثه لهم بياء النداء للتنبيه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٤١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١٥٥)

وزيادة الاهتمام، وكذلك بصيغة الانتماء ﴿فَقَالَ يَـٰقَوْمِ﴾ لما فيها من التلطف، وما تحمله من معاني الخير ومحبته لهم، وحرصه عليهم، وكراهية الشر لهم، والتواضع وعدم الاستعلاء، مما يفيد أن مسلك الأنبياء كان مسلكاً رفيع المستوى الأخلاقي والدعوي، فيقدم النموذج والقدوة للداعي والناصح والمعلم للخير. ثم يوجههم إلى ما يجب عليهم تجاه ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى.

وابتدأ شعيب قومه بقضية توحيد الله تعالى بالعبادة ﴿فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ فاستهل كلامه لهم بتوجيههم إلى عموم العبادة، بأن تصرف جميع العبادات لله تعالى وحده لا شريك له، معللاً ذلك بشأن توحيد الله تعالى، ونفي كل معبود غير الله عَزَّ وجل، فليس لكم رب وإله تعبدونه وترجونه وتخافونه إلا الله سبحانه وتعالى ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ واطلبوا ما في اليوم الآخر من الثواب والجزاء والنعيم المقيم، والخشية مما فيه من العذاب لمن يعصي الله تبارك وتعالى، ويكفر بالرسول، وبما جاء به من الحق ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تسعوا في الأرض بالبغي على أهلها، ذلك أنهم اشتهروا بإنقاص الكيل والميزان، وقطع الطريق على الناس. فلم يكن أمره لهم إلا بالخير، وما نهاهم إلا عن الشر والفساد. ومع ذلك كذبوه.

وقد جمعت دلالة ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ جميع أنواع الفساد ومفرداته ودرجاته، وجميع من يشملهم وقوع الفساد منهم، سواء من الناس، أو غيرهم مما خلق الله تبارك وتعالى، وكذلك أينما حللتم من الأرض، فكونوا على وجه ومسار الصلاح والإصلاح.

فقابلوا دعوة رسولهم بالتكذيب ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ فرموه بالكذب ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ فأخذت الذين ظلموا الصيحة من السماء، فارتجفت الأرض بهم، بأن تزلزلت بهم، وأخمدتهم وأهلكتهم، لكفرهم بربهم، وقيل إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة، أخرجت أرواحهم من أجسامهم ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ فأصبحوا على ركبهم صرعى بأفنيتهم[1] إذ أُلْقِيَ بعضهم على بعض موتى. أي ساقطين على وجوههم موتى، وقد التصقت وجوههم بالتراب. فتكون صورتهم في أرذل صورة، وأحقر موقف لهم في الدنيا. وقد ورد تفصيل قصتهم في سورة الأعراف، وهود، والشعراء.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٥٥٩-٥٦٠)

ثم أجمل تبارك وتعالى حال قوم عاد وثمود، فقال تعالى ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾ فمن الأمم المكذبة التي أهلكناها كما هو حال قوم لوط، وقوم مدين أهلكنا كذلك قوم عاد، وكان رسولهم نبي الله هود عليه السلام، وكانوا يسكنون الأحقاف، وهي قرية من حضرموت. وكذلك أهلكنا قوم ثمود، وكان رسولهم نبي الله صالح عليه السلام، وكانوا يسكنون الحجر، بمنطقة العلا ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ ﴾ أي: وقد ظهر لكم أيها الناس من مساكن قوم عاد بالأحقاف، وقوم ثمود بالحجر مما حل بهم من العذاب لآيات وعلامات تتعظون بها. ثم يخبر الله تعالى بمساندة الشيطان لهم على ما كانوا فيه من الفساد ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ فقد زين الشيطان لهم أعمالهم من الكفر والضلال والفساد، فأعانهم الشيطان على الصدود عن هدي الله تعالى ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فصدهم الشيطان بهذا التزيين عن قبول وسلوك طريق الحق والنجاة والسعادة ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾ فقد كانوا أهل بصيرة، أي: من أهل الفهم والإدراك الذي يعرفون به الحق. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وكانوا مستبصرين فيه قولان: أحدهما: وكانوا مستبصرين في الضلالة، قاله مجاهد. والثاني: كانوا مستبصرين قد عرفوا الحق من الباطل، بظهور البراهين. قال الفراء: كانوا عقلاء، ذوي بصائر، فلم تنفعهم بصائرهم[1] مما يبين خطورة الاسترسال في الضلال، وخطورة تزيين الشيطان للباطل في نفوس الإنس. بما يفيد الحذر والانتباه والاتعاظ.

وهاتان الدلالتان تُظهر براعة وبلاغة السياق الكريم في استيعابه للدلالتين المتظافرتين في تحليل إدراكهم وقوة تمعنهم، حيث يستفاد من القولين: أنهم مستبصرين بتمعنهم في الضلالة، وكذلك استبصروا الحق وعرفوه حق المعرفة، ولكن أدركتهم الأهواء، والاستكبار والتعالي بما زينه الشيطان لهم من أعمالهم الكفرية، فاتجهوا إلى إغراء الشيطان، فحادوا عن طريق الحق، ولم يقبلوه. مما يبين خطورة الشيطان، وأن على الإنسان الانتباه والحذر منه، وعدم الانسياق وراء عدوه الشيطان الرجيم، وما يزينه لهم من الشهوات والشبهات، بل عليه أن يحذر من ذلك أشد الحذر. كما يفيد ذلك أنه حتى العاقل إذا لم ينتبه ويستعن بالله تعالى فقد يقع في مصايد الشيطان. وفي هذا وعظ من الله تعالى لمن بعدهم بما كشف لهم مما كان من تلك الأمم التي كفرت، وأوضح لهم سبب غوايتهم، الذي يفيد التحذير والتنبيه.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٢٨/١٣)

ثم يذكر الله تعالى الثلاثة الذين تعاونوا على الضلالة والكفر والطغيان ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَـٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ﴾ وكذلك أهلكنا قارون صاحب الكنوز، وفرعون حاكم مصر، وهامان وزير فرعون، وأن سبب هلاكهم هو عدم طاعتهم لرسول الله موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَـٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ﴾ وابتدأ البيان عن شأن رسالة موسى بأداة التحقيق والتأكيد ﴿وَلَقَدۡ ﴾ والتي تؤكد ما بعدها من البيان ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَـٰتِ ﴾ فقد جاءهم موسى عليه السلام بالدلائل والحجج الواضحة الظاهرة بأنه رسول الله إليهم. ولكن منعهم الاستكبار ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ولكنهم لم يتواضعوا للحق، بل استكبروا وتعالوا في أنفسهم. وفي تخصيص وتعيين الاستكبار بأنه هو المانع، ما يثبت أنهم أدركوا وعرفوا صحة رسالة رسولهم موسى عليه الصلاة والسلام، وانحصر المنع من الطاعة والانقياد لله تعالى في الاستكبار. وكان استكبارهم متعدي على كل شيء، فشمل كل ما يأتون إليه من الأرض، فلا يرون أحداً أخير منهم في كل شأن وأمر. حتى كان الاستكبار هو المانع لهم من قبول دين الله تعالى. وقد أفاد قوله تعالى ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أفادت المبالغة في مساحة التكبر، وفي درجة التكبر، فإنهم أينما حلوا من الأرض أظهروا استكبارهم على غيرهم. بما يدل على أن الاستكبار بلغ ذروته في النفس، وفي التسلط والترفع على الغير. مما يفيد أهمية الحذر من التكبر، فإنه يتعالى في النفس وبالنفس حتى يحصل به الطغيان من الإنسان على غيره، والمبالغة المتناهية في الترفع عن قبول الحق المبين.

ثم يخبر الله تعالى عن كمال قدرته، ونقص تفكيرهم، وخلل فهمهم أمام كمال قدرة الله تعالى وقوة سلطانه ﴿وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ﴾ وما كانوا فائتين على الله تعالى بكفرهم وزعامتهم كما يفوتون على غيرهم، وكذلك ما كانوا سابقين في الكفر، فليس هم أول من كفر، بل قبلهم أمم كفروا بالمرسلين. قال الشوكاني رحمه الله تعالى عن معنى ﴿وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ﴾: أي: فائتين. وقيل: وما كانوا سابقين في الكفر، بل سبقهم إليه قُرُون كثيرة[١] وهذا من سعة البيان والدلالة. إذ أعطى معنيين لا تعارض بينهما، فليسوا بفائتين على الله تعالى، وكذلك بأنهم ليسوا أول من كفر، بل سبقتهم أمم بالكفر والعناد. مما يبين عمق وبلاغة سياق القرآن،

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٢٠٢)

وإعجاز مكونات ألفاظه وكلماته، وتعدد معطيات دلالاته المتعاضدة في معانيها، والتي تغني عن التفنيد بتعدد السياق لكل وصف ومراد.

ثم يبين الله تعالى كمال عدله بمجازاة كل قوم كذبوا رسولهم بما يستحقون من العذاب، وفي ذلك عبرة وموعظة لغيرهم ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فكل أمة مكذبة أخذها الله عَزَّ وجل بذنبها الذي تستحقه من العذاب. وبدأ بيان عدل الله تعالى بأنه أخذ المكذبين بما يستحقون من العذاب ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ ﴾ فأخذنا كل أمة بذنبها الذي تستحق له، لقاء كفرهم برسولهم، فمن أنواع الأخذ لهم: الرياح المحملة بالحاصب ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ أي: ريحاً محملة بالحصباء التي هي ذرات الرمل، فترميهم بها. وهم قوم لوط، كما قال تعالى في سورة القمر ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ مما يبين تنوع العذاب، الذي يدل على كمال قدرة الله تعالى.

والنوع الثاني للأخذ هو: الصيحة ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن الصيحة والصياح واحد، قيل: صيحة جبريل، وقيل صيحة من السماء، فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم وماتوا[١] كقوم ثمود. كما قال تعالى في سورة هود ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

والنوع الثالث: هو الخسف ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ وهو قارون صاحب الكنوز العظيمة. قال تعالى في سورة القصص ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ والخسف هو تكسر الأرض، بدخول ظاهرها في باطنها بمن عليها، وابتلاع من على سطحها في باطنها. فقد غَيَّبَهُ اللهُ تعالى في باطن الأرض مع داره التي

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩/٤٢)

يسكنها، وما حوته من كنوز. ليكون موعظة لغيره، الذين كانوا يتكبرون ويبطرون على غيرهم، وعلى ربهم، وينسبون النعمة لقدراتهم، وعلمهم ومهاراتهم.

واجتمعت في قوم نبي الله لوط عليه السلام، الصيحة والخسف والحجارة، كما قال تعالى عنهم في سورة الحجر ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ ولذلك هناك من العلماء من صنفهم ضمن أهل الحاصب، ومنهم من صنفهم ضمن من أرسلت عليهم الحجارة. ومنهم من صنفهم ضمن من أهلكوا بالصيحة، ولكن اجتمعت فيهم أصناف العذاب التي ذكرها الله تعالى في الآيتين السابقتين، وذلك لشدة شناعة ما كانوا عليه من الفاحشة ومن الكفر.

والنوع الرابع من الأخذ هو الغرق ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ أي: طرحهم الله تعالى بقدرته في البحر، حتى يغشاهم ماء البحر من كل جانب، وهم قوم نوح، وفرعون وهامان وجنودهم، كما قال تعالى في سورة الشعراء ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ وعن قوم نوح عليه السلام قال تعالى في سورة الفرقان ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

ثم يخبر الله تعالى عن كمال عدله، وبغضه للظلم ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ وما كان من الله تعالى الظلم بما فعل بهم من العذاب، لأنه أرسل الرُّسُل بالحجج والبراهين التي أيقنوا بصحتها، ولكن أخذهم الكبر والاستعلاء، فتحقق الظلم منهم لأنفسهم ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بالاستكبار على الحق وعدم قبوله، فباستمرارهم على الكفر، وعنادهم للمرسلين، وتكذيبهم لهم، وارتكابهم المعاصي العظيمة، من الكفر والشرك، وغيرها من الفسوق والفواحش فقد ظلموا أنفسهم بما كان منهم، فجعلوا أنفسهم في الهلاك الذي استحقوه بظلمهم. مما يبين عدل الله تعالى، وأنه لا يظلم أحداً أبداً من عباده، بل من رحمته إرسال المرسلين بالكتب والبراهين والحجج التي أيقنتها قلوبهم، وأنكروها تكبراً واستعلاء، وتغليبهم محبة الذي هم فيه من الغي والبغي والفساد. وتقديمهم الدنيا على الآخرة. بما يفيد الإنذار لكل أحد من أن يكون مصيره كمصير أهل العصيان والتكبر والتمرد على الحق، فقدم شهواته وهواه وتزيين الشيطان على الحق والخير والنجاة من عذاب الله عَزَّ وجل.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن

دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يضرب الله تعالى مثلاً عظيما في بيانه وإفصاحه وتجليته لحقيقة من يشرك معه غيره، فيعبده مستعيناً به. فيقول عزَّ وجل ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ يُخبر اللهُ تبارك وتعالى بأن الذين اتخذوا من دونه شركاء، يوالونهم بغية النصرة، وتحقيق النفع، ودفع الضر فإنهم يُشْبِهُون شأن العنكبوت في اتخاذها بيتاً لتتمنع به وتتحصن فيه مما يؤذيها، وهو لا يحصنها ولا يدفع عنها شيئاً لضعفه وهوانه. وذلك تَوهماً منها بأنها في قوة وحرز ومَنَعَة، بينما بيتها هو أوهن وأضعف بيوت المخلوقات لرقته، وضعفه وهوانه على غيرها. وكذلك هو مثل الذين يتخذون الشركاء من الأوثان، ويبتغون منها دفع المكروه، وجلب النافع والمحبوب، فإن حالهم كحال بيت العنكبوت الذي لا يدرأ عن العنكبوت شيئاً مما تخافه، وقد تعبت وأنهكت نفسها في بنائه ونسجه. وكذلك هو حال عقولهم كحال عقلية العنكبوت في حسبانها فيما بنته من البيت الرقيق الواهن الهزيل، وهو أيضاً شأنهم ووهمهم المماثل لوهم العنكبوت بما اتخذت من البيت الهزيل الضعيف. فأصبح حالهم مع الشركاء كحال العنكبوت مع بيتها، الذي لا يمنع عنها ما توهمت ورجت فيه. فكيف تتركون القوي العزيز، الذي بيده مُلكُ السماوات والأرض، وتذهبون إلى الضعيف الذي لا يملك لنفسه قوة ولا مَنَعَة؟ كما هو بيت العنكبوت الذي لا يملك لها مَنَعَة، فأصبح حالكم أيها المشركون العابدون لغير الله تعالى كحال العنكبوت، وأما معبوداتكم فحالها كحال بيت العنكبوت، فلا تجلب لكم نفعاً ولا تدفع عنكم ضراً. فانتبهوا لحالكم، واستيقظوا من جهلكم.

فإنها صورة مطابقة ومماثلة لِمَا اتخذوا من الأولياء، بأن شأنهم كشأن العنكبوت وبيتها الذي نسجته أملاً في أن يكون في بيتها المنعة والقوة. والأمر ليس كذلك، فإنه مخالف لتصورها كما هو مخالف لتصوركم، ومضاد للتعب والمشقة التي بذلتها في شيء لا يتحقق لها به فائدة أبداً. مما يبين هشاشة فكر وعقل من يتخذ من دون الله تعالى أنداداً. فإنه مثل قد بلغ في قوة التشبيه والتصوير الحقيقة المماثلة لمن اتخذ معبوداً غير الله تعالى.

وبدأ المثل بلفت الانتباه بكلمة ﴿ مَثَلُ ﴾ الذي يعني: أن هناك نظير وشبيه، مشتمل على تماثل وتشابه بين شيئين، وفيه غرابة مدهشة، تملأ الفكر عِلماً بواقعه، وتكشف له حقيقة حاله وجهده، كما أن في

كلمة ﴿ مَثَلُ ﴾ أن هناك معنى مهم ومقصود التنبيه عليه، بتوضيح صورته، وتجليت معناه وحقيقته من خلال تقريبه إلى العقول بالمثل، حتى تستوعب العقول المقصود بالشيء الماثل والماثل أمامها من المحسوسات، ليكون أوقع أثراً في العقول، وأوقع إثارة في النفوس. وأن هناك مُشَبَّه، ومُشَبَّه به، وبينهما قاسم مشترك في الضعف، والتفكير، والاتخاذ، والنسج، والاستعانة، وقوة الوهم إلى درجة الاهتمام والعناية به، وإضاعة الوقت والجهد فيه وهو وهم من سراب لا حقيقة له، كما توهمت العنكبوت في منعة بيتها وقوته، والشأن ليس كما توقعت وتصورت وتوهمت.

فيا أيها الناس الذين اتخذوا معبودات من دون الله تعالى تأملوا حالكم ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ ﴾ فالذين اتخذتموهم أولياء من دون الله تعالى، فتستغيثون بهم، وتخافونهم وترجونهم، فإن شأنهم ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا ﴾ فإن الذين اتخذتموهم أولياء من دون الله تعالى كمثل اتخاذ العنكبوت مما نسجته بيتاً رقيقاً وشفافاً، لا يغنيها في شيء، وهي متوهمة أنه حُصن حصين.

والعنكبوت هي: الحشرة المعروفة، الضعيفة في جسمها، وقوتها، وتفكيرها، والتي تنسج لنفسها بيتاً رقيقاً، زمناً طويلاً، وتبذل جهدها في بنائه وتشييده مع ضعفها الجسمي، وهي واهمة أن في هذا البيت قوة ومنعة به من شر ما تخاف وتتوهم، ولكن الأمر بعيد جداً عن ذلك، لأن بيتها عبارة عن وهن، من شدة ضعفه. ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ ﴾ فإن أضعف البيوت التي تتخذها جميع المخلوقات هو بيت العنكبوت، الماثل لأضعف ما يتخذه الإنسان من معبودات من الأصنام من دون الله تعالى، فيرجوها ويخافها. ويرجو النفع من ذلك المعبود الذي يتخذه من الأصنام والأولياء من دون الله تعالى، فيتقرب إليه، وهو لا ينفعه، ويبذل جهده في عبادته، وهو لا يغني عنه شيئاً، كما هو بيت العنكبوت لا يغني عن العنكبوت شيئاً، والعنكبوت وهي متوهمة أنه حصن حصين، وهي التي اتخذت البيت وصنعته، كمثل هؤلاء الذين صنعوا تلك المعبودات كما صنعت العنكبوت بيتها، واخترعوها وتوهموا كما توهمت العنكبوت أن بيتها درع حصين.

ووصف الله تعالى بيت العنكبوت بالوهن ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ ﴾ والوهن هو الضعف الشديد، الذي لا يقاوم ما يأتي إليه من أي نوع من أنواع الأذى. فإن وهن بيت العنكبوت كوهن المعبودات من دون الله تعالى، فهي مشابهة لها تماماً. وبالتالي كيف يا أصحاب العقول يكون تفكيركم كتفكير العنكبوت؟ وتجعلون عقولكم كعقول العنكبوت؟ ومعبوداتكم كبيت العنكبوت من العجز والضعف والرقة؟ أين عقولكم من هذا المثل المشابه لحالكم فيما اتخذتم من دون الله تعالى من الشركاء؟

ثم يستثير الله تعالى عقول المُخَاطَبين، ويستنهض فهمهم حتى يتعلموا، ويستثير مداركهم ليفهموا حقيقة أنفسهم من خلال جملة ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ فلو كانوا يعلمون هذه الحال فيما اتخذوا من معبودات من دون الله تعالى لما اتخذوها. ولو كان هؤلاء العابدون لغير الله تعالى يعرفون أن أولياءهم من دون الله عَزَّ وجل بمثل ضعف وعجز بيت العنكبوت لما اتخذوهم أولياء، ولكن غلب السفه على عقولهم، وغلب التقليد على تفكيرهم، وغلب الهوى والشيطان عليهم، فاستحسنوها فغاب عنهم العلم الحقيقي. ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ وقد عَرفوا الآن بهذا المثل المضروب لهم حقيقة معبوداتهم، فأصبح واجبهم هو متابعة الحق، الذي جاء به رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ونبذ الشرك، وجميع أنواع وحالات الكفر، فيتجهوا إلى الله تعالى بشريعته الغراء، التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور. وأن يحمدوا الله تعالى على هذا البيان والأمثال والمواعظ والقصص التي كشفت لهم الحقائق، وأن يسألوا الله التوفيق والثبات على الأمر، والعزيمة على الرشد. اللهم إنا نسألك الثبات على الحق، والعزيمة على الرشد.

وبعد أن أعلم الله تعالى الذين يعبدون من دونه معبودات باطلة بجهل عقولهم، بما ضربه من مثل ببيت العنكبوت، ينتقل البيان إلى بيان كمال علمه بهم وبتلك المعبودات، فيوجه سبحانه وتعالى المشركين لدقة علمه بما يدعون من دونه، فلا يخفى عليه شيء، بما يلزم الحذر والتحذير. فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فبدأ البيان بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يفيد تأكيد ما بعده من البيان الجازم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ فإن ربكم الله عَزَّ وجل عالم بتفاصيل ما تدعون من المعبودات التي لا شيء عندها تقدمه لكم، وأن هذه المعبودات مكذوبة من العابدين لها، فهي كالعدم، فكيف تتجهون لها ولا توحدون من اتصف بالعزة والغنى والحكمة والقدرة في تدبيره ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وهو الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في كل شيء، ومنها العزة ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فله العزة والقهر والغلبة والانتقام. وأما ثاني الوصف لله تعالى بأنه ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وكمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور موضعها، ويُنزلها منازلها الحقيقية. فكيف تعبدون أوثاناً مقهورة مصنوعة، وتتركون العزيز الحكيم؟ فهو تعزيز ينتهي به المثل، للعودة إلى الحق بالأدلة والحجج والبراهين.

ثم يبين سبحانه وتعالى سبب وهدف ضرب تلك الأمثال للناس، والغاية منها، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ فتلك الأمثال المضروبة التي

منها ما يخص معبوداتهم المماثلة للعنكبوت في اتخاذها البيت المتصف بالوهن والضعف والرقة، نضربها للناس ليعقلوها ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ فالمستهدف بها الإنسان لتوعيته، وليتعقل بها، ولرفع الجهل عنه من خلال الأمثال التي تَكْشِف له حقائق الأمور. فضرب المثل هو للتعليم، ونقل المتعلم من الجهل إلى العلم، وإلى الفهم الصحيح الذي يرتقي به، ويصحح عبادته وفهمه وتفكيره، ويرتقي به إلى التعقل. وهو امتنان عظيم من الله تعالى على العباد بما ضربه من الأمثال المتنوعة في كتابه القرآن العظيم.

ثم يبين تبارك وتعالى النوع العقلي، أي النوع الذي يمكنه إدراك وفهم الحقائق بما يضربه الله تبارك وتعالى من الأمثال. فقال عَزَّ وجل ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ فالذي يدرك تلك الأمثال تمام الإدراك هم العالمون، الذين يخرج عنهم الجاهلون. فإن الذين لا ينتفعون بالأمثال هم الجهلاء، السفهاء. وأما من عنده قابلية التعلم فإنه ينتفع بها غاية الانتفاع. وفي هذا الأسلوب مدح واستثارة واستنهاض وتحضيض للإنسان بأن يُمْعِن النظر ويتفكر ليكون من العالمين، وليس من الجاهلين الذين هم ضد العالمين. ومن جميل البيان وقوة كلماته استخدام لفظة التعقل ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ ﴾ ولفظة ﴿ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ فدلالة كلمة ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ ﴾ تفيد التعقل، وهو التفهم والتدبر، وإمعان النظر، الذي به تُدْرَك المفاهيم العظيمة من ضرب الأمثال، فينتفع بها، كما أنها أفادت نفي الانتفاع ممن لا يعقل ما تفيد وتعطي الأمثال من الحقائق. كما أفادت حصر الفهم والعلم لمن يعقل فقط، وهم ﴿ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: الذين يعقلون دلالات الأمثال، وينتفعون بها. لأن قبول العلم عندهم يُمَكِّنُهُم من فهم ما يعقلون، فينتفعون به. وبالتالي يُحَصِّلُون العلم ثم العمل مما يُتلى عليهم من القرآن الكريم، والمواعظ والنصائح الخير الكثير، والنفع العظيم، فقلوبهم تسترفد العلم، وتقبض عليه، وتعمل به. وفي هذا تحفيز وترغيب للترفع عن السفه، والارتقاء بالعقل والتعقل والفهم والعمل والتطبيق، ووجوب إدراك الأمثال على حقيقتها وبيانها.

كما فيه مدح وثناء على الأمثال المضروبة في القرآن الكريم، لما فيها من العلم الذي يرتقي بعقل الإنسان بدلاً أن يكون عقله كعقل العنكبوت، ومعلوماته رخوة كرخاوة بيت العنكبوت. كما تفيد الآية الكريمة التوبيخ لمن تغلب عليه سفهه، وأفشل قوة نعمة عقله بنفسه. كما يشير التوجيه الكريم إلى نعمة العقل في الفهم والتعقل، ومغالبة الشهوات والشبهات، وأن العقل وعاء العلم، وأنه قوة للإرادة نحو قبول الحق ولزومه في كل أمر وشأن، ومنه شأن الدين القائم على طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يتدرج السياق من الله تعالى إلى بيان أسس وهدف ومبنى خَلْق السماوات والأرض، بأنه قائم على الحق ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقد خلق

الله تبارك وتعالى السماوات والأرض ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: للحق وإظهار الحق، لمن تأملها ولم يخلقها عبثاً، فقد خلقها بالحق الذي يقوم عليه أمره ونهيه وشرعه وسلطانه، ولتكتمل نعمته على عباده بأحسن ما يكون فدلالة كلمة ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ تدل على أن كل شأن في السماوات والأرض قائم على الحق من كل وجه، فرفع السماوات بالحق، وسخر ما فيها بالحق، وخلق الأرض بالحق، وسخر ما فيها بالحق، ويُراد به الحق، وأنزل فيها من الخيرات بالحق، وأرسل الرسل وأنزل الكتب ليقوم الحق. وتبديد الظلم والجهل والقهر والتطاول بين العباد، ولتكون العبادة بالحق، وليس هناك من هو أحق بالعبادة من صاحب الحق سبحانه وتعالى.

فإذا تدبر الإنسان ذلك تحقق له الحق من كثرة آيات وحجج الحق التي في السماوات والأرض، فكل شيء قائم على الحق، وأن الله تعالى حق، وشرعه حق، ومن أشرك وكفر فقد تاه وضل عن الحق. ولذلك قال تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإن في جميع الكون من الخلق والتدبير آيات وحجج وبراهين ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ للمصدقين، الذين إذا تأملوا الكون، رأوا أنه كله آيات، وأنها دالة على أنه لا إله إلا الله سبحانه وتعالى، وأنه لا معبود بحق إلا الله عَزَّ وجل، فأوجبوا على أنفسهم طاعة ربهم تبارك وتعالى، والامتثال للرسل، الذين خاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وفي تخصيص المؤمنين ما يفيد أنهم المنتفعون بآياته سبحانه وتعالى، وأما من لم ينتفع بها فلم يؤمن على الرغم من عظمة آيات الكون، فكيف إذا انظمت إليها آيات القرآن. اللهم اجعلنا من المؤمنين الكاملين في إيمانهم.

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يوجه الله تعالى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بما يقوم به، ويحافظ عليه من العبادات، فقال تعالى ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ تَوَجَّه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب الأمر، ليفيد الوجوب والاهتمام والتأكيد والمداومة، وتعظيم ما نزل من الوحي بالقرآن الكريم. وفي هذا

إظهار ما يجب على المؤمنين في شخص النبي صلى الله عليه وسلم. ﴿ ٱتۡلُ ﴾ أي: اقرأ. والأمر للنبي صلى الله عليه وسلم، ليشمل ويعم جميع المؤمنين، وفي تخصيص الأمر بالنبي صلى الله عليه وسلم لأنه هو المبلغ رسالات لله تعالى، ولإفادة التعظيم لما أُمر به، ورفعة شأن المأمور، والمأمور به ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ اقرأ يا أيها النبي على الناس القرآن العظيم الذي أوحينا لك به، وتابع قراءته، وداوم على ذلك. وتفيد كلمة التلاوة ﴿ ٱتۡلُ ﴾ القراءة والاتباع والتتابع، بما يتحقق به تتبع كلماته، كلمة بعد كلمة، وتتبع آياته، آية بعد آية، وتتبع توجيهاته وإرشاداته وتعاليمه، وإنفاذها، ومتابعة قراءته، فإن في ذلك الهداية إلى الطريق المستقيم، ويغنيك الله تعالى به عن غيره.

وقد سمى اللهُ تعالى القرآن ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ باسم الجنس، لبيان أنه إذا ذُكِر الكتاب وأُفرِدَ فلا يكون إلا هو القرآن من بين جنس الكتب، فهو العلم من بينها، وهو المهيمن على كل كتاب، الجامع للهدى ولجميع صفات الكمال. ونسب الكتاب إليه سبحانه وتعالى لإظهار تعظيمه للقرآن العظيم، بما أوحاه الله عَزَّ وجل به إليك ﴿أُوحِىَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ التعظيم والتشريف والعناية والقوة والهيمنة لهذا الكتاب، بما يقرر أنه كتاب الله تعالى لعباده، الذي أنزله الله تعالى وحياً على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وبما يفيد كمال محتواه، وعظيم دلالاته ومقاصده، ونظمه، إذ أصبح بمجموع ما أوحي إليك من آياته كتاباً متكاملاً في مضمونه ومحتواه من كل وجه. وفيه تقرير بأن الحجج التي قد تَكَوَّنَ منها الكتاب المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، حجج وشريعة متكاملة للعباد.

ومن جليل البيان: الرحمة في التكليف، فإنه لما أن الإنسان لا يستطيع مواصلة التلاوة جميع الوقت، جاء البيان بحرف التبعيض ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من قوله عَزَّ وجل ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ من الكتاب، وليس كل الكتاب دفعة واحدة، حتى يكون الاجتهاد من المؤمن بحسب جهده وطاقته وقدرته، وبحسب المتلقين له إن كان الأمر متعلق بالوعظ والدعوة والتعليم والنصح. ليتحقق الهدف بأحسن القدرات. وبدأ الأمر بدلالة التلاوة للكتاب ثم بعده الأمر بالصلاة، لبيان أن الصلاة تقوم على ما يُتْلَى فيها من القرآن، وهي: الفاتحة وشيء من القرآن العظيم. كما أن في تقديمه لبيان نفعه المتعدي إلى غيره ممن يستمعون إلى تلاوته، وممن يُراد دعوتهم، ووعظهم به.

ثم يأمر سبحانه وتعالى بأعظم عبادة، وهي الصلاة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: أدِّ الصلاة، وتفيد كلمة الإقامة ﴿وَأَقِمِ ﴾ أن يكون الأداء بكامل أركانها وواجباتها وجميع حدودها، وفي أوقاتها، والمواظبة على

ذلك. لأن إقامة الشيء، يفيد كمال الأداء له. ثم أوضح بين تبارك وتعالى فائدة عظيمة من فوائد ومكاسب إقامة الصلاة، وهي: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فإن في إقامة الصلاة وفق ما ورد الأمر بها ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهو ما قَبُحَ من الأفعال والأقوال، وكذلك تنهى عن ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ وهو كل ما أنكرته شرائع الله تعالى، وأنكرته الفطرة السليمة، والعقول الصحيحة. مما يفيد أن من فوائد إقامة الصلاة وفق ما شرع الله تعالى، وقام بها صلى الله عليه وسلم، فإنها تغرس في المؤمن التقوى التي تجعله يدرك الفواحش والمنكر فيبتعد عنها، ولا تستهويها نفسه لخوفه من الله تعالى، ورغبته في رضا الله عَزَّ وجل، والفوز بما وعد به عباده الصالحين. فتُحَسِّن له الحسن فيعمله، وتُقَبِّح له القبيح من الفواحش والمنكر، فيكره فعله. وفي تقديم الأمر بالصلاة على الأمر بذكر الله تعالى، لأن الصلاة شاملة للذكر، فالذكر مشمول في الصلاة، فأفرده لبيان عظيم شأنه، وأنه لا وقت له، ليداوم عليه المسلم جُلَّ وقته.

فيخبر تبارك وتعالى عن منزلة المداومة على ذكره عَزَّ وجل ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ولذكر الله تعالى بالتسبيح والتهليل والتكبير والحمد والثناء أعظم وأكبر عند الله تعالى عبادة وثواباً وأجراً. مما يدل على عظيم منزلة الذكر. والصلاة هي من ذكر الله تعالى، لما فيها من التسبيح والتحميد والتكبير، وقراءة القرآن. وقال العلماء عن دلالة ذلك: ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه. وقيل: ولذكر الله تعالى أفضل من كل شيء سواه. وقيل: ولذكر الله في الصلاة أكبر مما نهاكم عنه من الفحشاء والمنكر. وقيل: لذكر الله تعالى العبد ما كان في صلاته أكبر من ذكر العبد لله تعالى[1] في غير الصلاة. والمتأمل في تلك الأقوال يجد أنها لا تتعارض، بل يتحقق بها سعة الفهم بسعة السياق الذي أتسع في دلالاته، فأعطى وأثرى بتلك المفاهيم النافعة، وذلك بسب تراكيب كلماته، ليدل على بلاغة وإعجاز القرآن في صف وصفوف كلماته التي يُعطي بها الله تعالى العديد من الفوائد والمقاصد العظيمة.

ثم يختم الله تعالى الآية العظيمة ببيان علمه بما يجتهدون فيه ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ فإن الله ربكم يعلم ما يكون منكم من أعمال الطاعة، فلا يغيب عنه من أكثر من الطاعة بما أمر، ومن قلل، ومن أصابه العذر، ومن التهى، ومن انشغل بمصلحة، فلا يفوت شيء عليه من شأنكم. وبما يفيد التطمين، والدعوة إلى الإكثار، فإن عِلْم الله تعالى بما تصنعون متحقق لا يفوت شيء منه أبداً. وقد ورد لفظ العلم بصيغة الفعل المضارع ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ الذي يفيد استمرار علم الله تعالى الذي ينقطع، فإن علم الله تعالى لا يتوقف عنكم أبداً ولا عن غيركم أبداً. كما ورد فعل العباد أيضاً بصيغة المضارع ﴿تَصْنَعُونَ﴾ ليفيد الاستمرار منكم وعدم

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/١٣٣)

الانقطاع، فإنه يعلم تتابعكم واجتهادكم في الطاعة. فهو بيان عميق من الله تعالى لعباده. فالحمد لله تعالى على نعمة البيان، وجميع الإنعام.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان منهجية مجادلة أهل الكتاب، من اليهود والنصارى ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ يوجه الله تعالى الخطاب لكافة المؤمنين بمنهجية مجادلة أهل الكتاب ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ فينهى تبارك وتعالى في التعامل مع أهل الكتاب فيما يخص التحاور والمناظرة في الدين ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وهو اللطف في الكلام، والترفق بهم. وجاء التوجيه الكريم بأسلوب النهي، وأسلوب الأمر ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ والجدال هو: المحاورة، وذلك بتبادل الكلام في الموضوع الذي هو مدار الحديث، من خلال إقامة الحجج بين الطرفين، لأن كل طرف يرى أن الحق معه. قال الجرجاني رحمه الله تعالى في تعريفه للجدل: هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن مقدمات إدراك البرهان[١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والمجادلة: مفاعلة من الجدل، وهو إقامة الدليل على رأي اختلف فيه صاحبه مع غيره[٢] وهي المناظرة التي تكون بين طرفين على أمر قد اختلفوا فيه. وقد تكون بين إثنين أو أكثر.

وقد نعتهم الله تعالى باسم ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وأهل الكتاب: هم اليهود، أهل التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، وكذلك النصارى، أهل الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام. ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وهو أمر يقتضي الوجوب، وأن يكون منهج المجادلة قائم على الأحسن ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وهو اللطف في الكلام، والترفق بهم. مع مجامع حُسن المعاملة، وحسن التعامل. فأورد الله تعالى ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وروداً عاماً، ليشمل الأساليب المتصفة بكريم الحوار، ذات الثمرة والنتيجة الطيبة، والتي لا تثير الغضب، الذي نتائجه تُوجب المباعدة. وهذا يتطلب مقابلة الخشونة بالرفق، والغضب بالحلم، والمشادة بكظم الغيظ، والأناة، والصبر والتحمل. قال مجاهد رحمه الله تعالى: هي محكمة، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، على معنى الدعاء لهم إلى الله عَزَّ وجل، والتنبيه على حججه

---

(١) الجرجاني، كتاب التعريفات (٧٤)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦٩٩/٨)

وآياته، رجاء إجابتهم إلى الايمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ معناه ظلموكم، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق[1] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: بأن أفرطوا في المجادلة، ولم يتأدبوا مع المسلمين، فلا بأس بالإغلاظ عليهم، والتخشين في مجادلتهم. هكذا فسر الآية أكثر المفسرين بأن المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى[2] فلما أن الآية متعلقة بالجدال، فيكون ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي: المكابرون منهم، المظهرون للعداء، والظلم. فهؤلاء الذين يتعاملون بالظلم معكم فلا تجادلونهم بالتي هي أحسن، لأنهم مستكبرون، يتطلبون إيقاع الظلم بكم، فهم لا يرغبون في الحق، ولا حتى نفوسهم متهيئة للاستماع منكم حتى يتسنى لكم مناصحتهم.

ومن دقائق البيان أن ورد البيان أولاً على سبيل الأصل في المجادلة بأن تكون بالتي هي أحسن، ثم استثنى الظالمين منهم عن الأصل. فهؤلاء الذين يتعاملون بالظلم معكم فلا تجادلونهم بالتي هي أحسن، وكذلك من دقائق البيان أيضاً أن ورد الظلم عنهم عاماً، ليشمل أي نوع من أنواع الظلم الذي يمتنع منه سماع الحق، وما يكون فيه من التعدي. وهذا من دقائق البيان العظيم، والإرشاد والتوجيه الحكيم، وحكمة المنهج الإسلامي، الذي يُعلم المؤمنين الحكمة في التعامل بأحسن الأساليب وأكملها. ويستفاد من هذا أنه عند مناصحة المؤمنين فيما بينهم فإنه يجب أن تكون بالتي أحسن، فإنهم أحق بها من غيرهم، وعدم تعاملهم عند النصح بالغلاظة والشدة، فإنها لا تجدي، ولا تحقق المطلوب.

قال السعدي رحمه الله تعالى: وأن لا يكون القصد من المجادلة هو مجرد المجادلة والمغالبة، وحب العلو، بل يكن القصد بيان الحق، وهداية الخلق. إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع[3]

ثم يخبر عَزَّ وجل بمرتكز الانطلاق في مجادلة أهل الكتاب. فقال الله تعالى ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فهذه مرتكزات المسلمين مع أهل الكتاب، فقولوا لأهل الكتاب بأننا نؤمن بما أنزله الله تعالى علينا ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو القرآن العظيم، وكذلك نؤمن بما أنزله الله تعالى إليكم ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ فنؤمن بما أنزله الله تعالى إليكم من كتاب، فنؤمن بالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣٢/١٣)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٠٦/٤)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦٤/٤)

أنزل على عيسى عليه السلام ﴿ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ ﴾ ومعبودنا الذي نتوجه إليه في العبادة واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، فهو ربنا وربكم عَزَّ وجل، لا شريك له في ألوهيته وربوبيته وفي أسمائه وصفاته ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ ونحن له خاضعون ومتذللون بالطاعة فيما أمر به ونهى عنه. وبلا شك أن هذه القواسم المشتركة تفتح عقولهم وقلوبهم على الاستماع والمناقشة، ودافع لهم على التصديق والإيمان، وفي توصية الله تعالى بهذه الوصاية ما يفيد أن منهج الإسلام هو منهج الحكمة في التعامل، وأنه يوجه أتباعه إلى الحكمة، ويعلمها لهم بهذا التوجيه الكريم، وأن يتجرد المجادل عن محبة العلو لذاته، وانتصاره، لأنها ستظهر حتماً في أسلوبه وكلماته، وحواره، فيجب أن تكون هداية الناس للحق هي الغاية والهدف. وأن هذا الهدف سيجعله يفكر ويبحث في الأساليب والألفاظ والعبارات، والأولويات التي يلزمه أن يسلكها، ويأخذ بها.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أنه بمثل هذا التنزيل الحكيم البليغ، والحكمة والعلم أنزلنا عليك القرآن العظيم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يخاطب الله تعالى نبيه رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وبمثل ذلك الإنزال البديع العظيم أنزلنا إليك الكتاب، الذي هو القرآن العظيم، بمعنى: وبمثل ما آتينا الذين من قبلك من الرسل الكتاب، أنزلنا إليك هذا الكتاب الْمُصَدِّق للكتب السابقة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: كما أنزلنا الكتاب على من قبلك يا محمد من الرسل ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ هذا ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[1] فالكاف من قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ تعني: مثل. وبمثل. واسم الإشارة الذي التصق به الكاف يعود إلى المفهوم من أنزلنا. أي: ومثل ذلك الإنزال العظيم البديع على من قبلك أنزلنا عليك الكتاب أيها الرسول. بما يفيد: أن الذين آتيناهم الكتاب: التوراة، والإنجيل، وعَلِمُوه حق العلم يؤمنون بهذا الكتاب الذي أنزلناه عليك، وهو القرآن العظيم. ولذلك بادر أهل العلم بالتوراة والإنجيل بالتصديق له صلى الله عليه وسلم ودخولهم الإسلام في عهده عليه الصلاة والسلام، كعبد الله بن سلام وأصحابه رضي الله عنهم.

ثم يخبر عَزَّ وجل عن حال مؤمني أهل الكتاب مع القرآن ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ فإن الذين أنزلنا عليهم الكتاب من بني إسرائيل يصدقون بالقرآن فيؤمنون به، ويدخلون في الإسلام، كعبد الله بن سلام وأصحابه الذين صدقوا وآمنوا بالقرآن وبرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٦٠٠)

أي: ومن هؤلاء العرب الذين أرسلناك إليهم ﴿ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ من يصدقون به كما صدق به أهل الكتاب من بني إسرائيل.

ومن دقائق التصديق بين الفريقين أن بني إسرائيل صدقوا به لِمَا في كتبهم من ذكر القرآن، وذكر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأوصافه. وأما عُمدة تصديق العرب لما رأوا في القرآن من إعجاز البيان الذي لا يمكن أن يكون من قول البشر، وثقتهم في سيرة نبي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وقد ورد البيان بصيغة التبعيض، أي البعض منهم آمن، وذلك بما أفاده حرف ﴿ وَمِنْ ﴾ من قوله تعالى ﴿ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ لإفادة أن البعض لم يؤمن، كما هو الحال من بعض بني إسرائيل من الجهال والحساد، إذ منعهم الكبر والحسد من الإيمان والتصديق. وأكّد سبحانه وتعالى جحود الجاحدين بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فما يجحد وينكر الحق الذي أدركه وعرف حقيقة إلا الذين توغل الكفر في قلوبهم، نتيجة الاستكبار والحسد، وليس المانع لجهل به، فقد تحقق علمهم بالحق، فأدركوه بعقولهم وقلوبهم وبصدقك أيها النبي، وصدق الآيات التي جئتهم بها. مما يبين أن الاستكبار والحسد وتزيين الشيطان أقوى القوى في الصدود عن الحق، والتظاهر بالتكذيب والطعن، حتى ينتصر لما في قلبه من الفساد.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ
ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟
لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ
يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

ثم يؤكد الله سبحانه وتعالى أن كفر من كفر هو من باب الطغيان، وليس من باب الجهل، فيسوق الله تعالى دليلاً عظيماً على قوة عناد الكافرين وجحودهم للحق. فيقول تبرك وتعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ فإن كفرهم هذا بك أيها النبي مع أنهم يعرفون أنك لا تقرأ ولا تكتب، وليس لك اطلاع على كتب المرسلين من قبلك ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ فكيف إذاً لو كنت تكتب وتقرأ، ولك تتبع ومعرفة بكتب السابقين من

المرسلين؟ لكان كفرهم أشد وأعتى. فيسجل ويثبت الله تعالى عدم معرفة نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم للقراءة والكتابة، وعدم معرفته بكتب من قبله، وخاصة آخر كتب بني إسرائيل من التوراة والإنجيل ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾ فلم تكن أيها الرسول من قبل أن ينزل عليك القرآن العظيم، تقرأ بعض الكتب المنزلة ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ ولا أنت ممن يعرف الكتابة التي تمكنك من القراءة. وقد ورد النفي بصيغة التأكيد التام ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾ فحرف ﴿مِن ﴾ نفى يفيد على الإطلاق، بأنك ما كنت تتلوا حتى بعضه أو شيئاً منه، بما يفيد المبالغة في النفي، التي تقطع مجرد الاطلاع ولو حتى على اليسير من المعرفة، فإنه لا يعرف شيئاً من ألفاظه وأساليب نظمه. ثم يعطف سبحانه وتعالى كمال نفي التلاوة للكتب السابقة على كمال نفي الكتابة ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ فحتى يمينك لم تخط أي كلمة، أو حرف، فهو نفي قطعي الدلالة.

ومن فوائد ذلك إظهار الشواهد والأدلة من شخص النبي صلى الله عليه وسلم، بإثبات أميته في القراءة والكتابة، فأصبحت منقبة له عليه لصلاة والسلام. كما أفاد قوله تعالى ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ أن الأصل في الكتابة أنها تكون باليمين.

ثم يذكر سبحانه كيف لو لم تكن تلك الحال فيك؟ من عدم معرفتك بما كان من قبلك من الكتب، وعدم معرفتك للكتابة أصلا؟ فكيف لو لم تكن تلك الصفتين فيك ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ فلو كانت فيك لزاد شك المتلبسون بالباطل، فسماهم الله تعالى ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أي: الذين التصق بهم الباطل، فهم أهل الباطل، وَرُوَّادُه وزعماؤه، فلو كنت مطلع على كتبهم، وأنك تقرأ وتكتب لتحججوا لباطلهم أنك تنسخ من كتب الأولين وتكتب. وهذا فيما لو كان ذلك منك، فكيف وهم يكذبونك وأنت لا تتلوا من كتب الأقدمين، ولا تكتب بيمينك، فهو بيان لمبالغتهم في الباطل، وبأن عدم إيمانهم هو نتيجة الذي هم عليه من الباطل، وليس شكاً فيك، ولا في القرآن العظيم، بما يدل على أنهم مُوقِنُون من داخل أنفسهم بصدق رسالتك، وأنك نبي ورسول من الله تعالى. مما يفيد أن الباطل إذا امتلأ القلب به، يصادم الحق الذي يعلمه علم اليقين، لأن الباطل الذي عنده لا يقبل الحق، نتيجة الاستكبار والحسد. مما ينبه الإنسان على أن ينتبه لحاله ونفسه من الباطل.

ومن الفوائد أيضاً: أن الأصل في الكتابة أنها باليمين ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ وتبدأ من اليمين، وفيه كذلك فضل اليمين في مزاولة الفضائل والنِّعَم، والتي منها الكتابة.

ثم يمدح ويثني سبحانه وتعالى على آيات كتابه القرآن العظيم، وعلى من يعتني به في صدره ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ فبدأ البيان بحرف العطف ﴿ بَلْ ﴾ بمعنى ولكن. بما تعطي نفي ما قبلها وإبطاله، وإثبات ما بعدها من البيان. فيكون المعنى: فليس هذا القرآن كما زعم المبطلون بأنها منسوخة من كتب الأولين، ولا من أساطير الأولين تُملى عليك، ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ ﴾ بل آيات واضحات راسخات، قد انتفى منها الغموض، فلا خاف ولا غامض فيها، بل ظاهر واضح مبين. وإن من وضوحها أنها ﴿ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ فإن العالمون بها وعلى رأسهم النبي صلى الله عليه وسلم لا يجدون فيها أي خفاء، ولا غموض، بل واضحات في صدورهم. مما يكذب ادِّعَاء أهل الافتراء، ويُفسد عليهم جحودهم، وأباطيلهم الفاسدة الباطلة. وبالتالي إذا كانت كذلك في صدور أهل الفضل الذين هم أهل العلم فإن في ذلك حجة عليكم أيها المبطلون، وأنكم قوم متزعمون للباطل والجحود والانحراف عن الحق والطريق المستقيم. وبالتالي يكون إنكاركم دليل عليكم بالبطلان والفساد.

ومن دقائق فوائد البيان: أن في الآية الكريمة ثناء ومدح لأهل العلم، وبيان أن مكان آيات الله تعالى في الصدور، وأن موقع العلم هو في الصدر، وبيان أن استبيان العلم وتحققه يكون محله في الصدور، وفيه إظهار منزلة الصدر من الجسم، بأنه وعاء الخير والفضل، بما يُرَغِّب المؤمنين ويحفزهم بأن تكون صدورهم أوعية للعلم، وعلى رأسها العلم بالقرآن العظيم؛ تلاوة وحفظاً، وفهماً، بأن تكون صدورهم أوعية للتطبيق والامتثال، ومناراً ومنارة للنفس، وتعليم الغير به، تلاوة وحفظاً وتفهيماً وتطبيقاً.

ثم يكشف سبحانه وتعالى ما يتقرر به على من جحد بآياته العظيمة الكريمة ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ فالجحود لآياتنا محصور في الظالمين، بما يبين أن كل جاحد لآيات الله تعالى هو ظالم. والظالم هو الذي ينكر الحق، ولا يعترف به. فلا يقيم الحق على نفسه ولا على غيره، بل يقيم الباطل والْجَوْر؛ وهو الذي يضاد الحق، ويجحد بآت الله تعالى. مما يدل على أن العدل منتفي عن الظالمين، وأن الزور والتزوير متمكن منهم، وأن الظلم واقع منهم حتى على أنفسهم، وذلك بمنع النفس من قبول الحق الواضح المبين الذي يترتب عليه تحصيل الجنة لمن آمن به، وتحصيل النار لمن كفر به، فَمَن كان ظالماً لنفسه فهو من باب أولى ظالم لغيره.

ومن دقائق البيان أن وصف سبحانه وتعالى كفرهم بالجحود ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ والجحود هو معرفة الحق ونكرانه، فينكرون الحق الظاهر في آيات الله تعالى، فأصبحوا بذلك ظالمين لأنفسهم وللحق. فإنهم موقنون به أنه حق لا شبهة ولا ريب فيه، ولكن ظلموا الحق، وظلموا آيات الله تعالى، وظلموا

الرسول صلى الله عليه وسلم، وظلموا أنفسهم، بأن حرموها من طاعة الله تعالى، ومن الفوز بالجنة والنجاة من النار.

ثم يذكر تبارك وتعالى ضعف ووهن حججهم مع الرد عليها بما يناسبها من الحق الذي يَرُدُّهَا ويُبْطِلُها، فقال تعالى عنهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فقالوا متسائلين فيما بينهم على سبيل العناد والجحود ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ فتركوا آيات الله تعالى التي خص به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وذهبوا للآيات التي أنزلت على من كان قبلهم من الأمم، كآيات العصا واليد لموسى عليه الصلاة والسلام، وآيات إحياء عيسى عليه السلام للموتى، وإبرائه لأعمى والأبرص والأكمه، وأنه يعلمهم بما يدخرون في بيوتهم، وآية خلق الناقة لنبيه ورسوله صالح عليه السلام، وغيرهم من المرسلين عليهم الصلاة والسلام. ومن قوة عنادهم أن أورد السياق كلامهم بما يفيد أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ليس من ربه ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ فكأن الذي أُنزل عليه، وجاءهم به ليس من ربه تبارك وتعالى.

واستخدام ﴿ لَوْلَآ ﴾ لإفادة الاقتراح والتحضيض على أن تكون الآيات التي يمكن أن يؤمنوا بها هي مثل تلك الآيات. ولكن ألم يعلموا أن المبطلين في كل قوم لم يؤمنوا حتى بتلك الآيات التي يطالبون بها. فإن أهل الباطل لا يؤمنون مهما كانت الآيات، ألم يعلموا أن المبطلون من قوم موسى وعلى رأسهم فرعون لم يؤمنوا، وقوم صالح، وقوم هود وثمود. فالمبطلون من قوم المرسلين السابقين لم يؤمنوا بتلك الآيات، وكفروا بها، لأن العلة ليس في نوع الآيات، بل في قلوبهم التي امتلأت بالباطل، فنسأل الله تعالى السلامة من كل شر وفتنة، ونسأله مزيد الهدى، والثبات على الحق، وحُسن الخاتمة.

فيرد الله تعالى عليهم بما يناسب تماديهم وتطاولهم على ربهم بما يقترحون ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ قل لهم يا أيها النبي ﴿ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ ﴾ التي هي الحجج والبراهين هي حصر لله عَزَّ وجل. فإن جميع الآيات كلها ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من عند ربنا، ولست أنا المُوكَل بها، ولست بالذي اقترحتها، ولست الذي اختارها، ولست القادر على أن آتي بها من عندي حتى تسألون وتقترحون علي ما تريدون ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فرسالتي تنحصر فقط في أنني أنذركم بما أُرسلت به، وهي الرسالة الواضحة، المتضمنة للإنذار الواضح المبين، من أن العذاب على من أبى واستكبر، وبقي على كفره، ولست مكلف بإيمانكم، ولست معاقبكم على كفركم، ولا أخلق الآيات، ولا آتيك بما تقترحون. بما يفيد أن هذه مهمتي

التي كلفني الله تعالى بها، فعليكم أن تختاروا لأنفسكم ما تدخلون به الجنة، وينجيكم من عذاب الله تعالى وسخطه، أو ما تدخلون به أشد العذاب. فهو بيان لمسؤولية الرسول، وأن الرسالة واضحة، وليس مجيء الآيات بما يقترحه المقترحون من الناس، فلو كان شأن الأمر للعباد لاختلفت مقترحاتهم بعددهم، فكل له اقتراحه الذي سيخالف به غيره، وإنما الآيات لله تعالى، وليست هي مُلك للأنبياء والمرسلين. وإنما أنا رسول بما أرسلني رب العالمين.

وخص من واجبات الرسالة الإنذار ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ لإفادة مناسبة الحال التي هم عليها، إذ تتطلب الإنذار بالتخويف والتهويل، أكثر من واجبات الرسالة الأخرى من التبشير، وتفصيل التشريع، والحجج. لأنها واضحة لهم، وأن حالهم هو حال من يجب إنذاره، وهذا من دقائق البيان لحالة التعامل، وما يتطلب الموقف منهم.

ثم يزيد الله تعالى من بيان عنادهم، وكشف استكبارهم الذي هو السبب في كفرهم، وليس الآيات كما يَدَّعِي المبطلون ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أليس يكفيهم آية القرآن العظيمة؟ فإننا أنزلنا عليك القرآن تتلوه عليهم بما أُنزل عليك. فهو سؤال إنكار عليهم، ولوم توبيخ للمبطلين الجاحدين.

وقد انطلق البيان الكريم بأداة الاستفهام ﴿ أَوَلَمْ ﴾ التي تدل على ما يفيد لفت ذهن الْمُخَاطَبين إلى عظمة القرآن، وعجائب أحكامه وأخباره وبيانه، ليستدلوا بإعجازه على صدق الكتاب، وصدق نبوة رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ ألم تحصل لهم به الكفاية التي تغنيهم عن سؤال غيره من الآيات، فإن من سمع الآيات تتلى عليه من القرآن العظيم تأكد له أن هذا الكلام ليس بكلام إنسان، ولا من نظم وفهم البشر، ومؤكداً ذلك سبحانه وتعالى بضمير المتكلم ﴿ أَنَّآ ﴾ الذي يفيد التعظيم والجلال والإجلال. ثم زاد تأكيده سبحانه وتعالى بإضافة الإنزال إليه عَزَّ وجل ﴿ أَنزَلْنَا ﴾ لزيادة التأكيد والتعظيم بأنه من عنده جَلَّ جلاله، ليرتقي بالدليل إلى أعلى منازل الارتقاء بأنه من عند ربكم.

وفي جملة ﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ إشارة وتنويه إلى شرف وتشريف النبي عليه الصلاة والسلام بهذا القرآن الكريم. فأنت أيها النبي الذي حظيت بهذا الإنزال للكتاب، ثم يبين جَلَّ جلاله الغاية والهدف ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ يُقرَأ عليهم الكتاب من قِبل الرسول الذي أنزلنا عليه الكتاب صلى الله عليه وسلم. وقد تحقق منه عليه الصلاة والسلام تلاوته على أسماعهم. فهو سؤال استفهام واستنكار وتعجب من جهلهم،

وتغافلهم عن إعجاز القرآن في نظمه وتشريعه، وقصصه وأمثاله، وترغيبه وترهيبه وإنذاره، فإن جميع دلالاته تُثبت لهم أنه كلام رب العالمين، وصدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وصدق ما يُخبِّرُون به من المغيبات كذلك.

ثم يخبر جَلَّ في علاه بما في هذا القرآن من الرحمة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن ذلك الذي أنزلناه عليك أيها النبي لرحمة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ فإن القرآن الذي أنزلناه عليك لرحمة في كل شيء. ووردت الرحمة عامة، لتشمل الرحمة في تشريعه، والرحمة في أجر تلاوته، والرحمة في تعليمه، والرحمة في تعلمه، والرحمة في استماعه، والرحمة في علاجه للقلوب، وللعقول، وللنفوس، وللأبدان. ورحمة في أحكامه التي تمنع الشر، وتحث على الخير، وتضبط العلاقات من كل وجه، وتحقق الترابط، وتبادل النعم، والشفقة والرحمة بالضعيف، والرحمة بين أهل الدين، والرحمة بالبهائم، وبجميع مخلوقات الله تعالى، ورحمة يوم الدين، بأن يكون شفيعاً لأهله، وطريقاً مستقيماً إلى الجنة.

وكذلك هذا القرآن هو ﴿وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فهو هداية لمن آمن به، إذ يتذكرون به العبر والمواعظ التي تحثهم على الخير، وتحذرهم من الشر. ووصف سبحانه وتعالى المنتفعين بما في الكتاب من الرحمة، وبما فيه من التذكر بأنهم المؤمنون ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وكلمة يؤمنون تفيد: اتصافهم المستمر بالتصديق للحق، وعدم المكابرة، وأما من كان شأنهم الجحود والاستكبار فلن ينتفعوا به ما لم يعودوا عن المكابرة والاستعلاء، ومحبة الباطل، والخوض فيه. بل إن من قوة نفعه وسعة أثره أنه متحقق للقوم ﴿لِقَوْمٍ﴾ إذا عملوا به، فلو كان هناك قوم يطلبون الحق ويؤمنون به إذا جاءهم، فلن يترددوا جميعاً في الإيمان والتصديق به. فإن من سعته وعظيم بركة هذا الكتاب أن رحمته وتذكيره ليس محصوراً على بعض الأفراد لقلة تأثيره، بل إن قبوله ليحصل للقوام الذين يقبلون الحق فيؤمنون به. وبما يفيد أنهم لن يختلفوا على التصديق به، مما يفيد المبالغة في عدد من يؤمنون به. وانتفاء أن يكون الإيمان في أعداد بسيطة ومحدودة العدد. وبالفعل قبله قوم الأنصار، وقبلته قرى ومدن بعد ذلك، وقبائل كاملة، وأمم عبر التاريخ. وواقعه اليوم الذي بلغ المشارق والمغارب يشهد له بذلك.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ

لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

ويستمر الرد على المشركين، وكشف باطلهم، فيخاطب الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالذي يقوله للمكذبين ﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الكفرة المنكرين الجاحدين المكذبين، فإن تكفروا بي، ولا تشهدوا لي بالرسالة، فإن الله تعالى العظيم الجليل يشهد لي بالرسالة، وصِدْقِ دعوتي وكفى به شرفاً وشهادة بيني وبينكم، فإني استغني بها عن كل شهادة ﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ فإن الله تعالى يشهد بصدقي وبرسالتي، وبتبليغي لكم ما أرسلت به إليكم، ويشهد عليكم بتكذيبك لنبيه ورسوله، وربنا هو خير من يشهد عليَّ وعليكم، وكفى بشهادته شهادة على صدق ما أرسلني به، فإنني مستغني عن شهادتكم، لأنها لا تنفعني مع شهادة الله تعالى، ولا يضرني تكذيبكم بما أُرسلتُ به، فشهادة الله تعالى تكفيني حجة وتأييداً وانتفاعاً ونصرة على من يكذبني، ويعاند ويعاديني.

وفي إشهاد الله تعالى قطع جازم وتأكيد جازم بنبوته، وبما أُرسل به صلى الله عليه وسلم، وتحذير لمن كذب به، ونفى عنه الرسالة صلى الله عليه وسلم، وفي هذه الشهادة من الله تعالى رفعة للنبي صلى الله عليه وسلم ومنزلة ومكانة بأن الله تعالى هو الشاهد له. فشهادة ربي أعز وأكرم فهو ﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ فعلمه أعظم علم، فهو يعلم جميع ما يدور ويحدث في السماوات والأرض. بما يفيد عظيم علمه بي وبكم، وما كان مني لكم، وما كان منكم معي ومع رسالة ربي لكم. وبما يفيد سيجازيني بما استحق، ويجازيكم بما تستحقون من العذاب، وسوء المصير.

ثم يبين سبحانه وتعالى خسارة هؤلاء المكذبين ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ فإن الذين آمنوا وصدقوا الباطل، ونافحوا عنه، ورفضوا الإيمان بالحق الظاهر بهذه الدلائل من الحجج والبراهين فإنهم لخاسرون في الدنيا والآخرة.

ثم يخبر اللهُ سبحانه وتعالى عن فرط جحودهم، وتماديهم في الاستهزاء، وذلك أنهم بهذا يستعجلون عذاب ربهم، فبدلاً من الاتعاظ بما يرون أثناء مسيرهم في الأرض، وبما يسمعون عما حصل لمن قبلهم، فإذا بهم يتمادون في طغيانهم، ويطلبون نزول العذاب على سبيل الاستبعاد المبني على تكذيبهم لرسول الله صلى الله

عليه وسلم، وعلى سبيل الاستهزاء ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فيستعجلونك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بوقوع العقاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة، وبالشر قبل الخير ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ وقد أخبر الله تعالى بسؤالهم ذلك في أكثر من سورة، ومن ذلك قولهم كما جاء في سورة الرعد ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ وكذلك في سورة الأنفال ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ وهذا من فرط إنكارهم وتكذيبهم، إذ يطلبوا العذاب.

بل ومما يثير التعجب من حال مسلكهم هو استعجالهم واستخفافهم بالعذاب، بالرغم من معرفتهم مما أصاب من سبقهم من الأمم من العذاب الشديد، فكان الأولى بهم الاتعاظ. فيقول الله تبارك وتعالى عن عذابه لهم ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ فلولا أن الله تعالى حليم، بأن جعل لكل شيء أجل مقدر، قدره بحكمته ولطفه لتحقق فيهم العذاب عاجلاً كما سألوا، ولكن ليس تحقق العذاب بحسب الطلب، وليس هو بإرادة الرسول صلى الله عليه وسلم، بل هو لله تعالى وحده لا شريك له، ولكنه سيأتيهم في الوقت وبالكيفية التي يريدها ويحددها الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فسوف يتحقق فيهم العذاب فجأة وبغتة، فلن يُخلف الله تعالى ما وعد به المكذبين من الانتقام منهم. وهذا تهديد ووعيد لهم. فإنه منجزه جَلَّ في علاه في الوقت الذي عينه عَزَّ وجل؛ كما وعد به، وليس كما يريدونه هم. وأن صفة مجيئه ووقته أنه فجأة ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ ﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ وهم لا يشعرون بمجيئه إلا وقد وقع بهم. ليجعلهم هذا البيان في انتظار مُقْلِقٌ لهم، ووعيد يستوجب منهم الخوف، والعدول عن تكبرهم وباطلهم إن أرادوا الحق.

ثم يخبر الله تعالى عن استعجالهم للعذاب الدنيوي، في حين أن عذاب الآخرة قد أحاط بهم، وتحقق فيهم ﴿ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ببيان حالهم، وما يحيط بهم من العذاب ﴿ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ يطلبون العذاب الذي تُخَوّفهم به، وتَعدهم به إن لم يستجيبوا، وهم مستعجلون له بُغية تكذيبك وتعجيزك، وكأن الأمر عندك في تحقيقه، ولا يعلمون بحلم الله تعالى، وبما أعده الله تعالى لهم وهو ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فإن

جهنم قد أعدت واستعدت لهم ولجميع الكافرين، فإنها ستحيط بهم إحاطة تامة قريباً. مما يبين أن موتهم حادث قريب، وسيكونون في جهنم وبئس المصير، بل في وسطها لتكون الإحاطة بهم من كل جانب. وفي هذا البيان كشف للحقيقة التي سيكونون عليها، وإنذار لهم بما يعدهم الله تعالى به. وبما يستوجب عليهم من العدول عن جحودهم، ودخولهم في دين الله تعالى.

ثم يوضح الله تعالى كيف يكون شأن إحاطة العذاب بهم ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ذلك اليوم الذي تحيط جهنم بالكافرين هو ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ فإن في ذلك اليوم ﴿يَغْشَىٰهُمُ ﴾ أي: يحيط بهم إحاطة تامة، من جميع الجهات، بما يجمع معه العلو من الارتفاع، ومن أسفلهم وتحتهم، ومن جميع جوانبهم، لأن الغشيان يستوعبهم من كل جانب وجهة ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ فاستوفت الإحاطة لجميع الجهات ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ويقول الملك الموكل بهم من خزنة النار ﴿ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يوبخهم ويذكرهم بما كان منهم، من الأعمال القبيحة، والكفر والصد عن سبيل الله تعالى، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، وجحود القرآن، وعدم التصديق به، وعبادتهم للأصنام. ويوبخون بكلمة ﴿ ذُوقُوا۟ ﴾ التي تفيد مباشرة العذاب وشدته إلى درجة مماسته لحواسهم؛ كما يتذوق اللسان الطعام ونوعه. فالتذوق باللسان هو أشد وأدق حالات التذوق والاستشعار لدقائق المطعوم. فيكون قد بلغ بهم شدة الإحساس بالعذاب ما تبلغه حاسة اللسان من الطعام.

﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا
تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن
دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ

مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى توجيه الله تعالى لعباده المؤمنين، بتعليمهم ووعظهم بما يمكنهم من إقامة دينه سبحانه وتعالى، وطاعتهم لبرهم عزَّ وجل، فيخاطبهم مباشرة بآياته الكريمة العظيمة ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ وقد استهلت المخاطبة من الله سبحانه وتعالى لعباده بياء الخطاب ﴿ يَٰعِبَادِيَ ﴾ وهذا النداء الذي يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، وبما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة العباد، العابدين، وأضافهم لنفسه تبارك وتعالى إضافة تشريف وتكريم، لإيمانهم وطاعتهم وامتثالهم. ثم يؤكد عبوديتهم بصفة الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وهي تزكية لهم من الله تعالى بتحقيقهم الإيمان وتحقيق العبودية، بل إن جملة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ تفيد: الذين اتصفوا بالإيمان، وتحقق فيهم، فأصبحت سمة وصفة ثابتة فيهم، ويُعرَفُون بها. وهي من أرقى درجات الوصف والمدح والثناء، وهي تزكية رفيعة من الله تعالى للمؤمنين.

وكذلك فيها بيان لِمَا يستلزمه هذا الوصف من الامتثال لطاعة الله تعالى، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى من أطاعوه بهذه الرتبة الجليلة والمنقبة العظيمة، التي تحمل إثبات الإيمان لهم، وعبوديتهم له جَلَّ جلاله، وتوحيدهم لربهم عَزَّ وجل. والتزكية لهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما خُوطِبُوا له؛ وأُمِرُوا به. وهو قوله تعالى ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته وتعامله لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم بعد هذا النداء بالخطاب الكريم من الله تعالى لعباده، يبين لهم أهمية العبادة، حتى ولو تَطَلَّب الأمر منكم الهجرة والانتقال من مكانكم الذي عشتم فيه منذ طفولتكم، وفيه أعمالكم وتجارتكم ومصالحكم الدنيوية ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ إن أرض ربكم واسعة، وكلها ملك له عَزَّ وجل، حيث نسبها له جَلَّ في علاه ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾ بما يفيد التحريض على عدم التمسك بالبقاء في مكة، وأن يهاجروا إلى حيث

يتمكنون من عبادة ربهم، من غير مضايقة وتضييق لكم من الأعداء في موطنكم. وهي تفيد الحلول الممكنة لكل من يجد شيئاً من ذلك بأن يتنقل في أنحاء البلاد، بما يتحقق به إقامة الدين، بل من الفوائد أن قد يتطلب الأمر الانتقال من حي إلى حي، أو من مدينة لأخرى، لوجود الأفضلية له.

مبيناً سبحانه وتعالى الهدف والغاية من سعة الأرض، والانتقال من مكان إقامتكم إلى حيث تأمنون إقامة دينكم، فالهدف والغاية هو ﴿ فَإِيَّـٰىَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ فالهدف إقامة عبادتي. وفي هذا بيان للهدف والغاية من الهجرة، بأنها من أجل التمكن من عبادة الله تعالى. مما يفيد أهمية العبادة، ووجوب أدائها، ولو تطلب الأمر الانتقال من بلد إلى بلد. وأن مَن لم يتمكن في مكان إقامته من أداء شعائر الله تعالى، فعليه أن يتركها ويهاجر إلى المكان الذي يمكنه فيه أن يؤدي طاعة الله تعالى وعبادته كما شرع.

ثم يبين سبحانه وتعالى لهم حقيقة الحياة بأنها منتهية بفناء الإنسان، ورحيله منها ﴿ كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ فكل نفس سيلحقها الموت، وتذوقه، وبالتالي لن يكون لها البقاء في الدنيا، حتى يحرص على مكان إقامته، وهو راحل عنها. فإنكم بعد الموت راحلون إلى الله تعالى ﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ فأنعم وأكرم بالرحيل إلى الله تعالى، فهو الكريم ﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ فعودتكم إلينا يا عبادي المؤمنين، حيث الثواب العظيم الذي وعدتكم به، وهي الجنة. فيحفزهم تبارك وتعالى إلى الهجرة بالمصير الذي سيلقاه كل حي، وهو الموت والرحيل من الدنيا إلى الآخرة.

وفي جملة ﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ ما يفيد التكريم لكم بالرجوع إلينا. فرجوعكم هو رجوع لربكم. وكلمة الرجوع تفيد العودة للأصل، وللمكان الذي هو أصل حياتكم فيه، فأبوكم آدم، وأمكم حواء كانوا هناك. كما يفيد هذا أهمية لزوم الصبر على ما يأتيكم من متاعب، وأن يهُوّن المؤمن ذلك الأمر بالرجوع إلى الله تعالى.

وفي هذا موعظة للإنسان عندما يصيبه شيء في سبيل الله تعالى، فَيُقَوّي نفسه بقول الله عَزّ وجل ﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ وهي قوة عند التكاسل عن الطاعة، فيذكرها بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ وهي وسيلة لمعالجة التباطؤ في الطاعة ﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ وهي قوة للإرادة في متابعة الخير بأنواعه، وذلك حين يذكرها بقوله عَزَّ وجل ﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ وهي وسيلة للامتناع عن الشهوات المحرمة ﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ فهي قوة باعثة للخير، ومانعة للشر إذا كانت تعايش الإنسان في حياته، فإنها موعظة عظيمة. بل ويعظ المؤمن بها غيره كذلك.

ثم يخبرهم الله تعالى بما سيكون لهم عند الرجوع إليه ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ فإن الذين آمنوا بتصديقهم بالله تعالى وبالرسول وما جاءهم به، وعملوا بالصالحات التي هي شريعة الله تعالى ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ فسوف نُنزلهم ونسكنهم الجنة، التي فيها ﴿ غُرَفًا ﴾ فليست غرفة واحدة، بل غرفاً كثيرة، فإن كلمة ﴿ غُرَفًا ﴾ جمع، مفاده الكثرة والتنوع والتعدد، والعلو، لأن كثرة الغرف تدل على أنه البيت والمسكن المشتمل على غرف متعددة من كثرتها، مع ارتفاعها، لتطل على الأنهار ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ تجري من أسفلها الأنهار الكثيرة، والأنهار جمع نهر، بما يدل على الكثرة والتعدد والتنوع ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ باقين فيها، لا يموتون، و لا يخرجون منها، بل في سعادة دائمة، لا تنقطع، ثم يُثني الله تعالى عليهم وعلى هذا الثواب العظيم بكلمة ﴿ نِعْمَ ﴾ التي تستوفي جميع خصال المدح والثناء ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ فأنعم بهذا الثواب الذي هو الأجر العظيم الجزيل الذي يحصل عليه العاملون بطاعة الله تعالى في الدنيا، فَحَصَّلوا في الآخرة الأجر العظيم والثواب المقيم الذي لا يحول ولا يزول من ربهم تبارك وتعالى.

ثم أخبر تبارك وتعالى بأعظم ميزتين وقوتين قد مكنتهم من العمل الصالح ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فالميزة والقوة الأولى هي: الصبر ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ فبصبرهم على الطاعة، وعلى مفارقة ما يمنعهم عن طاعة الله تعالى، فإنهم قد أصبحوا من العاملين الممدوحين، مما يدل على أهمية الصبر، وأنه القوة التي يتحمل بها المؤمن أداء الطاعة، ويتحمل بها منافحة المكروه، وجميع الموانع عن الطاعة. وأما الميزة والقوة الثانية فهي: الاعتماد على الله تعالى ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وبتوكلهم وثقتهم واعتمادهم على ربهم أصبحوا من العاملين الممدوحين، فَحَصَّلوا هذا النعم المقيم. مما يفيد أن أقوى عوامل الثبات والطاعة هو الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والتوكل على الله تعالى، فإنها مفاتيح الخير في الدنيا والآخرة.

ثم يعظ الله تعالى عباده في جانب الرزق الذي يُشغل بال العباد ونفوسهم، فيعالجه بضرب المثل المتعلق بعطائه سبحانه وتعالى الرزق للدواب العاجزة عن حمل رزقها ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فكم من دابة عاجزة عن أن تحمل رزقها وتصنعه وتخزنه، ومع هذا فإن الله تعالى يرزقها لتعيش عمرها. بما يفيد: أن الله تعالى هو المتكفل بالأرزاق.

وبدأ البيان بالتكثير الذي من كثرته أصبح دليلاً وحجة بأن الله تعالى هو المتكفل بإيصال الرزق للمرزوق. إذ أن دلالة ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ تعني: كم، من الكثرة والتعدد. والتي تفيد المبالغة في التكثير والتعدد، بالكثرة المتنوعة للمضروب به المثل. وضم الله تعالى رزق المخاطبين لتلك الدواب التي لا تحمل رزقها، فعطف رزق العباد على رزق تلك الدواب ﴿ ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾ فكما أن ربكم عَزَّ وجل يرزقها على ضعفها، وقلة تدبيرها، وضعف قدرتها على حمل رزقها فكذلك أنتم يرزقكم ربكم بتهيئة الأسباب وإنجاحها في تحقيق أهدافها ومطالبكم منه، وكذلك أنتم فإنه على ما فيكم من القدرة على الأخذ بالأسباب، فإنه هو الذي يهيئ لكم الأسباب، ويجعلها تثمر لكم الأرزاق، بما يفيد أنه لا يتركّم للأسباب، بل يرزقكم ويهيئ لكم الأسباب، وبما يفيد لماذا تحملون هم الرزق؟ فلا تحملوه بعد هذا البيان الواضح الجلي، فعليكم بما طُلب منكم من السعي في مناكبها، ونحن نهيئ لكم أسباب الرزق وإثماره، كما نرزق من لا تحمل رزقها من الدواب. مما يعلم الإنسان أن لا يشغل قلبه وعقله بالرزق، بل يشغل عقله بطاعة الله تعالى والصبر والتوكل على الله تعالى، ويطلب الرزق منه عَزَّ وجل، ويسعى في مناكب الأرض من باب الأخذ بالأسباب، كما قال تعالى في سورة الملك ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ ثم يعزز ذلك سبحانه وتعالى ويعضده بكمال أسمائه وصفاته ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ فإن ربكم سميع، يسمع كل شيء، فلا يخفى عليه صوت، ولا ناطق، ولا طالب حاجة، ولا مستجير. كما أنه عليم بكل شيء، فلا يخفى على علمه عَزَّ وجل شيء أبداً، بل ورد ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ بصيغة المبالغة التي تفيد كمال السمع والعلم إلى أقصى الاحتواء، بحيث لا يفوته شيء. بل ورد كذلك بصيغة الحصر والقصر على أن هذه صفة من الكمال لا يشاركه فيها أحد أبداً سبحانه وتعالى ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ فهو وحده لا شريك له في صفاته وأسمائه سبحانه وتعالى. بما يفيد من كانت هذه صفاته، فلن يخفى عليه أحد، في حاجاته، وفي سعيه، وفي طلبه، ومرضه وجميع مطالبه. فتعاملوا مع ربكم بما أخبركم به عن نفسه به عَزَّ وجل.

ثم يكشف ربنا تبرك وتعالى عن حال المشركين في مكة ومَن يماثلهم من غيرهم، وبأسلوب إثارة تعجب الْمُخَاطَبين من تفكير أولئك المتناقض، الذي يدل على قوة تماديهم في الباطل ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ فحين سؤالهم عن الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، فطوعها للعباد، وخلق هذا الكون بهذه الكيفية ﴿ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ فيقرون بالله خالق السماوات والأرض، ومسخر الشمس والقمر، ومع هذا لإقرار يتوجهون للأصنام بالعبادة.

فهو عين التناقض ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف يُصرفون عمن خلق وسخر ذلك الخلق العظيم، فيعبدوا غيره، أو يشركوا به غيره سبحانه وتعالى، فيكذبون ويعدلون عن الحق في عبادتهم، باتجاههم إلى الأوثان، ويوجهون عبادتهم لها، وهم يقرون بخلق السماوات والأرض لله تعالى، وأنه الذي سخر الشمس والقمر للعباد ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ والإفك هو الكذب، فكيف إذاً يكذبون، فَيُصرَفُون عن توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة إلى معبودات اخترعوها من أنفسهم. فإن كذبهم ظاهر، لا خفاء فيه بهذا التعارض والتناقض العجيب. إذ يتركون خالق السماوات والأرض، ويذهبون للمقهور والمصنوع بأيديهم. فهو أمر يثير تعجب الْمُخَاطَبين. فكيف يُصرفون عن الحق بهذا الفهم المتناقض.

ثم يؤكد ويبين سبحانه وتعالى بطلان إفك من سأل وعبد غيره، وطلب منه الرزق والعون مما هو حق لله تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يقرر سبحانه وتعالى أنه هو وحده الذي يقسم الأرزاق بين العباد ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي يوسع الرزق بما يشاء ولمن يشاء من عباده إلى درجة البسط من الوسع الذي يفيد عظيم رحابة التوسعة إلى حد الإغناء. ومن الناس من يكون حاله في الرزق بما قدره الله تعالى من المحدودية ﴿ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ﴾ فهو كذلك الذي بحكمته يقدر قلة الرزق، ويضيقه، ويوسعه تارة، ويضيقه تارة، وفق حكمته وعلمه بعباده مما لا يعلمونه من أنفسهم حال توسعة الرزق عليهم، وحال تقديره بالقدر الذي يناسب طبع وحال كل واحد منهم. وهذا من عظيم حكمته ورحمته بالعباد.

ثم يبين تبارك وتعالى سبب هذا التنوع في البسط والتقدير ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فإن ربكم هو لا غيره بكل شيء عليم، فيعلم من العباد ما لا يدركونه عن أنفسهم حال توسعة الرزق، وحال تقديره وتضييقه. فيعلم منهم كيف سوف يتصرفون فيما لو زاد أو نقص أو قل الرزق بقدر معين من التقدير. فمن لطفه سبحانه وتعالى أن الرزق بيده، ومن حكمته ورحمته أنه يقدره بما يناسب العبد، سواء من حيث صلاحه، أو من حيث فساده، أو من حيث عقابه بتوسعة المال أو تقتيره عليه.

فقد بسط ووسع الله تعالى على قارون الرزق عقاباً له، ومحمد صلى الله عليه وسلم، وهو أحب الناس لربه تبارك وتعالى، يقل عنده الرزق كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من طعام ثلاثة أيام حتى قُبِض)[1] وهو سبحانه وتعالى الذي بسط الرزق للخليفة الراشد

(1) البخاري، الجامع الصحيح (٣/٤٣٠) برقم (٥٣٧٤)

عثمان بن عفان رضي الله عنه، حتى أنه جهز جيش العسرة، وهو الذي بسط الرزق للصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه، وهناك فقراء أهل الصفة رضي الله تعالى عنهم، وهناك المتوسطين في الرزق من الصحابة رضي الله تعالى عنهم. حتى يبين الله تعالى للناس شأن البسط والتقدير بأنه لحكمة، وليس دليلاً على الرضا، ولا عن السخط، فمن يتأمل شأن الرزق من الله تعالى يجد فيه عظيم الحكمة والرحمة واللطف.

فإن وسَّعَهُ تارة وضيقه تارة ليربي العبد على التدبير، ويُعَرِّفَه بأن حصول الرزق عند البسط عليه لم يكن بفهمه وجهده وفكره وحذق تصرفه، فلو كان الأمر كذلك لما ضاق عليه الرزق بعد السعة. وكذلك قد يوسع على عبده لعلمه أنه يبذله في أوجه الخير، أو لحكمة يعلمها الله تعالى ولا يعلمها العباد، وقد يقلله بالقدر المناسب للعبد، لعلمه أنه لو زاد عليه عن المقدار المناسب لطغى وأسرف. فكم من عبد يقول: لو وسَّع الله تعالى عليَّ لعملت فيه من الخير كذا وكذا، وعند التوسعة عليه يجول به في التبذير والطغيان، فالله أعلم بما سيكون من العبد عند التوسعة بالبسط، وعند التقتير والتقليل. فيعامل عباده بحكمته العظيمة ورحمته الواسعة.

ثم يعود البيان من الله تعالى إلى إثارة تعجب الْمُخَاطَبين من تفكير أولئك الكفرة، المتصف بالتناقض العجيب، الذي يدل على قوة تماديهم في الباطل ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فحين سؤالهم عن الذي أجرى السحاب وأنزل من السماء ماء على العباد، فأحيا به الأرض بالإنبات بعد موتها بالجفاف ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ فإنهم يعترفون بأن الله تعالى هو الذي أنزل الغيث من السماء، ولا غيره يستطيع ويقدر على ذلك. فكيف إذاً يتوجهون بالعبادة للعاجز من المعبودات وسؤالها الرزق، ويتركون الرزاق الذي يحي لهم الأرض بعد موتها، فتصبح زاهية بخضرتها. ولكن ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فاحمد الله تعالى يا أيها النبي بأن جعل ربك الحق معك، وأظهر حُجَّتَك عليهم. وورد الحمد بصيغة الأمر ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ليفيد الوجوب، ولزوم الإكثار من الحمد والشكر لله تعالى، فما من نعمة إلا منه وحده عَزَّ وجل. وجملة ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تُعلم العبد أنه عندما يرى نفسه في خير، وغيره على الضد من ذلك، فعليه أن يزيد حمده وشكره لله تعالى، فيحمده حمداً كثيراً على أن سلمه مما غيره فيه. سواء من صحة، أو رزق، أو هداية وتوفيق، أو غير ذلك من الإنعام الذي لا حصر لنوعه وقدره ومقداره.

ثم يُصدر سبحانه وتعالى الذم عليهم بما يستحقون ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فأكثر هؤلاء المعاندين لك يا أيها النبي لا يتعقلون بما هم عليه العقلاء من الناس، فلا يعملون بمقتضى ما يعرفون من الحق، بل يعملون بما يناقض الذي يعرفونه تمام المعرفة من الحق. مما يؤكد أنهم معاندون، فقد أخذهم العناد إلى ما هم

فيه من الكفر. مما يبين أن التعقل هو لزوم الحق حين إدراكه، وهجر الباطل وتركه والتولي عنه، ولا يكابر بنفسه عليه، ولا على من أتى به. وأما المكابر بنفسه على الحق فليس هو من العقلاء في شيء.

ثم يخبر الله تعالى بحقارة الدنيا، مقارنة بالآخرة، ليتحفز الإنسان بالمقارنة إلى الأصلح والأصوب ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأٓخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ يزهد الله تعالى القلوب من التولع بالحياة الدنيا والانشغال بها عن الآخرة، ويشوقهم للآخرة والعمل لها، وتقديم الباقي على الفاني، بما يجعل المرء يسابق لتحقيق مطالب فضائل الآخرة على الدنيا ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ فما شأن الحياة الدنيا، وما فيها من الزينة ومن الاشتغال بها إلا بمثابة من يلتهي ويلعب. فاللهو هو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه. وهو الحالة التي يشتغل فيها الإنسان بما لا يعود عليه بالنفع، فهو الاستمتاع بملذات الدنيا. وأما اللعب: فهو الاشتغال والعبث بممارسة ما لا فائدة فيه، ووصفت الدنيا بهذا الحال تزهيداً فيها، لأنها فانية، مهما كان اللهو، ومهما كان اللعب، فإنه لا يحقق لصاحبه مصلحة دائمة ثابتة، تستقر بها عينه، وفؤاده.

وأما الآخرة كما قال تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأٓخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ فإن الدار الآخرة ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ أي: هي: الحياة الحقيقة الباقية ﴿ٱلْحَيَوَانُ ﴾ الحياة الحقيقية، الدائمة التي لا تنتهي، ولا تنقضي، ولا تزول ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: لو كانوا يعلمون فناء الدنيا وبقاء الآخرة لآثروا الباقي على الفاني. مما يفيد التنبيه، وإصلاح الفهم والتفكير والمسلك نحو حقيقة الدنيا والآخرة، ليتحفز ويندفع الإنسان لابتغاء الباقي، وتقديمه على الفاني، وذلك بتحقيق متطلبات الفوز بالباقي، التي أهم ركائز متطلباتها الإيمان والطاعة، وفق ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وهذا كله في أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش والقوة على الطاعة، وأما ما كان منها لله تعالى فهو من الآخرة، وهو الذي يبقى[1] أي فلا يشغلك ما في الدنيا من اللهو واللعب عن الآخرة، فقدم مطالب الآخرة، واستثمر وقتك، وقدراتك في الفوز بالآخرة. والشريعة الإسلامية بينت وأوضحت في تشريعها جميع ما يتعلق بمنهج التعامل في هذه الحياة الدنيا، والموازنة فيها، بما يحقق للعبد خير الدنيا والآخرة.

وورد التشجيع للآخرة الباقية بعد البيان لحقيقة الدنيا الزائلة الفانية بأسلوب التحضيض، فكلمة ﴿لَوْ ﴾ تفيد التحضيض نحو الآخرة، والتأنيب لمن ترك النعيم الباقي، وأقبل على الفاني، وهو حرف امتناع

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣/٢٤٠)

عن تحصيل المطلوب للآخرة لمن كان حاله كحال من لم يعلم بذلك المطلوب، لأنه أشغل نفسه بالفاني عن الباقي. فجملة ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ تبين أن من لم يعمل بذلك العلم الذي تم بيانه وتفصيله، وتجاهله، فإن حاله كحال من لم يعلم بذلك المرغوب والمطلوب. وأما من تحصل له العلم وهو مجتهد في طلب الباقي، وتقديمه على الفاني، فإنه هو الذي عَلِمَ العلم الحقيقي فاتخذه سبيلاً ومنهجاً. فهو نظم من البيان عظيم في بيانه، وأهدافه وغايته، وإعجازه، ومصالحه التي تجعل المتبع له في خير وسعادة في دار الدنيا والآخرة.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾
لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ
ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا
لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

ثم يذكر تبارك وتعالى المزيد من شناعة المشركين ولؤمهم، ويكشف عن معرفتهم الحق ولكن عنه يستكبرون، فقال تعالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فعند ركوبهم السفن لتحملهم وتنقلهم إلى مرادهم، يدعون ويرجون الله وحده لا شريك له ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ فحالهم في مراكبهم من السفن إذا أصابهم الله تعالى بالرياح والأمواج العاتية، وخافوا الغرق والموت ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فتجردوا من معبوداتهم من الأصنام وغيرها من كل معبود من دون الله عَزَّ وجل، فتوجهوا بالدعاء الخالص إلى الله تعالى، دون أن يشركوا معه جَلَّ جلاله أحداً من معبوداتهم. بما يفيد معرفتهم بأنه لا ينجيهم إلا الله سبحانه وتعالى، وأن معبوداتهم من الأصنام وغيرها لا تنفعهم بشيء وقت الشدائد، فلا تدفع عنهم بأساً، ولا تجلب لهم خيراً، ولا تنجيهم مما يحل بهم من دواهي الأمور. فإذاً لماذا تعبدونها؟ ولماذا تتركون عبادة الذي ينجيكم من كل كرب؟ فمنطقهم يُثبت معرفتهم للحق، ولكنهم قوم يستكبرون، ويستعلون بأنفسهم، بما يفيد أن الكبر إذا مَكَّنَه الإنسان من نفسه منعه من الخير والحق.

بل ومن عنادهم أن حالهم عند النجاة هو العودة إلى الشرك، ليفيد أنهم قوم متعالين ومتكبرين عن قبول الحق الذي أيقنوه تمام اليقين ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فبعد أن نجاهم تبارك وتعالى

من أمواج وهيجان البحر، وأوصلهم إلى البر ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فإذا بهم يعودون إلى الشرك، ويتركون من كانوا إليه يجأرون بالدعاء الخالص له سبحانه وتعالى. فالذي نجاهم في البحر هو الذي ينجيهم في البر، وكما أن البحر ليس بمأمن لكم من العذاب، فكذلك البر ليس بمأمن لكم من وقوع ما تكرهون من الشر، ومن العذاب. مما يكشف حقيقة المعاند الذي إذا أدخل العناد في قلبه وفكره جعله يكابر عن أن يخرج مما هو فيه، ظلماً لنفسه، وظلماً للحق منه، وعناداً واستكباراً. مما يفيد أهمية الحذر من الاستكبار والعناد بالباطل، فإنه إذا صار سمة لأحد من الناس فقد لا يستطيع أن يتحرر منه، فيبقى في قبضته وشدته.

ثم يبين تبارك وتعالى علة وسبب إخلاصهم لله تعالى وقت الشدائد، وكفرهم في الرخاء ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ فتحولهم من الإخلاص وقت الشدائد إلى الشرك وقت الرخاء هو ﴿ لِيَكْفُرُواْ ﴾ أي: لينكروا نعمة الإنجاء. وللام للتعليل، ذكر القرطبي رحمه الله تعالى: أن اللام في ﴿ لِيَكْفُرُواْ ﴾ هي بمعنى: كي، أي: لكي يكفروا، ولكي يتمتعوا. وقيل: ليكون ثمرة شركهم أن يجحدوا نعم الله تعالى، ويتمتعوا بالدنيا[١] فاللام هي لبيان وتعليل أن سبب تحولهم بعد الإخلاص إلى الكفر هو ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ﴾ فأشركوا من أجل أن ينكروا ما آتاهم الله تعالى من نعمة الإنجاء، وأنهم نجوا بمهارتهم وقدرتهم، فيتظاهرون بما ليس لهم أمام الناس. وورد الإيتاء عاماً ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ﴾ ليشمل ويعم جميع حالات النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، فينسبونها لمعبوداتهم من غير الله تعالى، وإلى قدراتهم ومهاراتهم، ليتكبروا ويستعلوا بها على غيرهم، حتى يحافظوا على اتباعهم، وتحصيل الوجاهة بينهم.

ولها وجه آخر على اعتبار أن اللام في قوله تعالى ﴿ لِيَكْفُرُواْ ﴾ هو لام الأمر. ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن هذا لام الأمر، ومعناه التهديد والوعيد. والمعنى: ليجحدوا نعمة الله في إنجائه إياهم[٢] وقال القرطبي رحمه الله تعالى على معنى أنها لام الأمر: معناه التهديد والوعيد، أي: اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر، وتمتعوا[٣] والمعنيان متظافران، بما يستوفي بهما كمال المراد من دلالة النص الكريم، فكلا المعنيين مرادين، فاكفروا بما أنعمنا عليكم من النجاة ليتحقق فيكم العذاب، وبمعنى أن سبب عودتهم إلى لشرك من أجل أن يبرروا لأنفسهم التمتع بما هم عليه من المفاسد، والجاه، وقيادة الناس، وإبقاء الأتباع. فاستوفى براعة

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤١/١٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٩/٦)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤١/١٣)

السياق الوجهين المقصودين. مما يدل على الإعجاز البياني في تراكيب ألفاظ الآية الكريمة، لتعطي تلك المعاني الدقيقة.

والسبب الآخر في عودتهم للشرك هو ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ ليتلذذوا بما آتاهم الله تعالى بالطريقة التي يريدونها، وليست بالمنهج الذي يريده الله تعالى، فإنهم يريدون الاستمرار فيما هم عليه من الاستمتاع بالفجور، فيتصرفون كما يحبون ويهون من الحرية المطلقة دون قيود وضوابط لشريعة الله تعالى عليهم. وقيل لها وجه آخر، بحسب القراءات الواردة في كلمة ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ ذكر ذلك أهل التفسير. فذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أنه اختلفت القراءة في قوله تعالى ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ بحسب الحركة التي على اللام، فبكسر اللام يكون المعنى: وكي يتمتعوا آتيناهم ذلك. وبسكون اللام يكون المعنى: على وجه الوعيد والتوبيخ، أي: اكفروا؛ فإنكم سوف تعلمون ماذا تلقون من عذاب الله تعالى بكفركم به[1] وذكر كذلك ابن الجوزي رحمه الله تعالى كون اللام بالإسكان يكون على معنى الأمر. أي: ليتمتعوا بباقي أعمارهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم[2] وهذا تهديد عظيم لكفرهم. وتحذير لهم مما هم فيه من الكفر. مما يفيد أن القراءتين أعطت رحابة في دلالة البيان الكريم، وكلاهما واقع. والمعنيان متظافران، بما يستوفي كمال المراد من دلالة معطيات الآية الكريمة، فكلا المعنيين مرادين، فاستوفى براعة السياق الوجهين المقصودين. من غير بناء نص لكل معنى ودلالة، مما يدل على الإعجاز البياني في تراكيب ألفاظ الآية الكريمة، لتعطي تلك المعاني الدقيقة في بيان المراد.

ثم يلفت الله تبارك وتعالى عقولهم وغيرهم من الناس إلى آية أخرى عظيمة، متعلقة بحفظ بيته الحرام، وساكنيه من التعدي عليه، وعلى زائريه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أليس في حفظ بيته وساكنيه من الاعتداء والبغي الحاصل في القرى المجاورة آية لهم في قدرة ووحدانية الله تعالى، والذي يؤازر ويؤيد ذلك الأمن حجج القرآن العظيم، بأنه من عند الله تعالى، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإنها حجة ظاهرة وقائمة، يعيشونها، ويرونها.

وقد بدأ التوجيه الكريم للفت الانتباه لهذه الحجة العظيمة بسؤال استنكار على عدم اهتدائهم بما يعشونه بهذه الآية العظيمة من الأمن ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ألم يشاهدوا بأبصارهم وبصائرهم الخطف الذي يدور في القرى التي حولهم. بينما هم في أمان من ربهم تبارك وتعالى. والخطف هو الأخذ بسرعة. وقد كانت العرب تعيش

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/٤٤١-٤٤٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/١٣٩)

في غارت بعضهم على بعض، ولا يحدث هذا لقريش بمكة، لما جعل الله تعالى لها من الحرمة، حتى عرف العرب ذلك كلهم.

وهو سؤال استنكار عن حال المكذبين فيما يرونه ويعيشونه بكامل حواسهم من الأمن الذي حققه عَزَّ وجل، فقرر به حقيقة تدبيره التي تُوجب عليهم التصديق برسوله صلى الله عليه وسلم وطاعته واتباعه. واشتمل السؤال على استنكار تغافلهم، وتجاهلهم لما هو محسوس بالرؤية البصرية، ومُدْرَك برؤية البصيرة، أفلم يشاهدوا بأبصارهم، ويتأملوا ببصيرتهم؟ وفي إثبات القرآن لها، وتنبيههم لها حجة بأنه من عند الله تعالى. ومن قوة البيان أن بدأت المعالجة لعقولهم ولعقول غيرهم بالاستفهام الإنكاري، والمتضمن للتعجب من عدم إدراكهم لما يعيشونه، من الأمن والرخاء وما أوضحه القرآن من البيان لذلك الأمن.

وفي قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ شد الانتباه، بتحريك البصر للنظر والتأمل، وشد بقية الحواس معه إلى الاختطاف والرعب الذي تعيشه القبائل. ولتعظيم نعمته سبحانه وتعالى عليهم أورد الله تعالى البيان بضمير التفخيم للمتكلم ﴿ أَنَّا ﴾ وكرر ضمير التفخيم ملتصقاً بجعلنا، ليفيد عظيم امتنان ربكم عليكم، فأورد الجعل الذي هو التمكين ﴿ جَعَلْنَا ﴾ به عَزَّ وجل، ليفيد التأكيد للعناية التي حظوا بها من ربهم جَلَّ جلاله. وسماه تبارك وتعالى ﴿ حَرَمًا ﴾ ليدل على تحريم جميع أنواع البغي فيه، والتعدي، والأذى بكل أنواعه، ونسب التحريم له عَزَّ وجل ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ ليفيد كمال العناية من لدنه سبحانه وتعالى، وحقق فيه الأمن ﴿ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ فليس هناك من يستطيع أن يحقق هذا الأمن المخصوص للبلد المخصوص إلا الله تبارك وتعالى. فأين أنتم من هذه الآية العظيمة، بأن جعل في قلوب العباد هيبة لهذا الحرم العظيم؟ وأين أنتم من التوحيد؟ وأين أنتم من الإيمان برسولكم؟ فأين عقولكم مما ترون من الأمن والناس يتخطفون من حولكم. ألا ترعوون وتطيعوا رسولكم.

فيقررهم سبحانه وتعالى بسؤال تقبيح لهم، واستنكار عما يعرفونه عن مكة من أمنها وحرمتها التي ترسخت عند العرب جميعاً، بما حصل لأبرهة الحبشي عندما أراد هدم الكعبة، فرماه الله تعالى بالطير الأبابيل التي تحمل الحجارة، فتقذفه وجنوده بها، كما في سورة الفيل. ألم يروا ويعلموا حتى تحقق لهم الأمن بمكة من كل من أراد بها وبأهلها السوء.

وورد البيان من الله تعالى في تحقيق الأمن لهم بدلالة ﴿ جَعَلْنَا ﴾ التي تعني وتفيد: قوة الاقتدار بحيث لا يستطيع أن ينازعهم أحد. وذلك بترسيخ قدمهم في التمكين بمكة. ليتبين أن التمكين كله الله تعالى، فينزعه ممن يشاء، ويؤتيه من يشاء بحكمته وقدرته. وإذا مَكَّن الله تعالى أحداً أقدره على ما منحه وأعطاه. كما

أن دلالة ﴿ وَيُتَخَطَّفُ ﴾ تدل على قوة شوكة العدو، وشدة حال خوف الناس مما حولهم، حتى تجاوز خوفهم من قدرة عدوهم على أخذهم خطفاً، لأن دلالة كلمة الخطف ﴿ وَيُتَخَطَّفُ ﴾ تدل على السرعة والقدرة والقوة من غير مشقة يَكْتَرِثُ منها العدو، مع ضعف وهوان قدرة الخائف من الخطف، وهو امتنان عظيم من الله تعالى عليهم، بأن أَمَّنَهُم، فجعلهم في أمن وأمان، مع شدة الخطف وكثرته فيما حولهم، من غارات القبائل بعظها على بعض، لسلب الأموال، والحلال من الماشية وغيرها ﴿ وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ فالناس يُتَخَطَّفُون من حولهم. مما يصور حال القلوب التي حولهم من القرى، وهم يعيشون في رعب وخوف، بينما هم في حالة مغايرة لغيرهم، فقلوبهم آمنة مطمئنة، لِمَا يعيشون فيه من الأمن والاستقرار، ورفاهية الحياة، والأرزاق التي تُجبى وتؤتى بها إليهم عبر رحلة الشتاء والصيق.

وورد ذكر الخطف بالتكثير ﴿ وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ ﴾ فكلمة ﴿ ٱلنَّاسُ ﴾ أفادت الكثرة، وبينت ما كان الناس فيه وعليه من المبالغة في الخطف. وليفيد العموم، والتعميم بما هو سائد آنذاك. فالناس من حولكم في رعب من الأقوام المجاورين لهم، وأنتم في أمن ورغد من العيش. فجاء البيان القرآني الكريم مصوراً لحالهم المختلف عن حال من حولهم. كما أفاد قوله تعالى ﴿ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ أي: من القريبين لهم، ممن يحيطون بهم من القبائل والقرى، والتي يمرون عليها ويعرفونها، ويعرفون حال أهلها. فهو تصوير بياني دقيق بالمشاهدات المحسوسة. مما يبين الإعجاز البلاغي والبياني للقرآن الكريم. وكذلك عظيم تقدير وتدبير الله تعالى، وأنه رب كل شيء ومالكه. وأنه هو المحقق للأمن والرخاء والخير بتدبيره وفضله وامتنانه.

ثم يلتحق بهذا السؤال سؤال آخراً عن مرادهم ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ إنه سؤال استنكار على تصرفاتهم المناقضة للحق والحقائق، فمع هذا الإنعام، وهذا الأمن والحجج والبراهين فإنهم يذهبون بإيمانهم إلى الكفر، ويذهبون بالكفر إلى ربهم الذي أنعم عليهم ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ ﴾ الذي هو الشرك وغواية الشيطان يؤمنون. وبعقاب الله تعالى، وعطائه وفضله وإحسانه يكفرون وينكرون، ويجحدون؟ سؤال يثير التعجب من تصرفاتهم وحالهم المتناقض، الذي يدل على استكبارهم الذي أودى بهم إلى الكفر وبئس المصير.

ومن جليل البيان أن ورد الباطل عاماً ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ليشمل ويستوعب جميع أنواع الباطل ودرجاته التي يصدقون بها. كما وردت النعمة عامة ﴿ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ لتشمل وتستوعب جميع إنعام الله تعالى التي يكفرون بها، بما يفيد قوة التمادي في الكفر والطغيان، والعناد والاستكبار. فهو تحليل لحقائقهم

بما يبين عدل الله تعالى، وكمال علمه، وجليل فضله على العباد، ومع هذا فأكثرهم فاسقون، خارجون عن الحق. اللهم نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، ورضاك عنا يا رب العالمين، وحسن الخاتمة.

ثم يتدرج سياق الآيات الكريمة إلى بيان فداحة ظلم أولئك الذين افتروا على الله تعالى الكذب، ليدرك الإنسان خطر جرأتهم عندما يتجرؤون الافتراء بالكذب، ليصل بهم الأمر أن يفتروا الكذب على الله تعالى، وليدرك قوة إثم، وعظيم الجزاء الذي سيناله المفتري، وما يلحقه من العذاب المهين، والفضيحة على رؤوس الأشهاد، فقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ فبدأ التوجيه الكريم بسؤال استنكار، وتعظيم هول وفداحة افتراء الكذب على الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ فهل هناك أكثر ظلماً للنفس من أن يفتري صاحبها على الله تعالى الكذب. والافتراء هو تعمد الكذب، وذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى أن: تقييد الافتراء بالحال المؤكدة ﴿ كَذِبًا ﴾ لزيادة تفظيع الافتراء، واختير الافتراء للدلالة على أنهم يتعمدون الاختلاق تعمداً لا تخالطه شبهة[1] وقد نسب هؤلاء المفترون القرآن المعجز إلى الكذب، وأنه مفترى من رسوله صلى الله عليه وسلم، والذي قد عجزوا على أن يأتوا بِسُوَرٍ مثله مفتريات، بل حتى سورة واحدة، ويَدَّعُون أن لله تعالى شركاء، وأن أصنامهم شفعاء لهم عند الله تعالى. فإنه ليس هناك أحد أعظم ظلماً من هؤلاء. فهو سؤال استنكار لفعلهم، والتقرير بأنهم أعظم مخاليق الله تعالى افتراء بما افتروا على خالقهم الكذب. وفي هذا تعظيم لخطورة من يفتري على الله تعالى الكذب.

وفي قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ﴾ سؤال استنكاري، يتقرر به: أنه ليس هناك جرم أعظم من أن يفتري الإنسان على الله تعالى فرية بتحريم أو تحليل أو بغيرها، فإن الله تبارك وتعالى يؤكد بهذا السؤال الاستنكاري شناعة من يكذب عليه عَزَّ وجل ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ﴾ فليس هناك أشنع وأقبح ممن تَقَوَّلَ واختلق على الله تعالى ما لم يقله ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ﴾ أو كذب بحجج الله تعالى وأدلته الدالة عليه، وعلى صدق نبوة أنبيائه، فأنكر صحتها وردَّها متعاظماً لنفسه.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧٢٣/٨)

ومن دقائق السياق أن ابتدأ البيان بتعيين النوع الذي هم أشد ظلماً فيه، بما يفيد أن هناك أنواعاً ودرجات أخرى من الظلم، كما تفيد ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ﴾ التنبيه والتخصيص بأن الظلم أنواع، وهذا أعلى أنواع الظلم ودرجاته. وبالتالي فإنهم أكثر وأشد الظالمين عقوبة من غيرهم. وهو سؤال يستثير التأمل في مواطن افترائهم الكذب على الله تعالى، وتكذيبهم للحق ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ فهل يوجد ظلم هو أبلغ ظلماً من ظلمهم هذا؟ فقد بلغ هؤلاء من الافتراء على الله تعالى مبلغاً عظيماً، فإن ردهم للحق بتكذيبه والطعن فيه هو أشد ظلماً. فهو سؤال يستثير التأمل، بما يتطلب منهم إن كانوا يعقلون، أن يُمْعِنُون النظر والفكر في مواطن افترائهم، ودواعي التكذيب بالحق، ليخرجوا بفداحة ما صدر عنهم، وأن تكذيبهم هو فقط لمجرد اتباع الأهواء، ومحبة التعالي، والاستكبار فكذبوا بالحق، وافتروا على الله تعالى الكذب. فهو سؤال غاية في عمق دلالاته وفوائده، ومردوده عل من تأمل. مما يبين أن منهج الإسلام قائم على الحقائق، وعلى العلم، وعلى الأساليب العلمية الدقيقة، والتي منها التفكير والتأمل الدقيق. فنحمد الله تعالى على نعمة الإسلام ومناهجه العظيمة، التي تفتح العقول، وتثري النفوس بالحق والخير، والهداية والوضوح.

ثم يخبر سبحانه وتعالى مماثلة أولئك الذين يفترون الكذب عليه عَزَّ وجل، بالذين كفروا بالحق الذي جاء به إليهم رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ بما يفيد أنهم في الظلم متساوون مع الذي يكذب بالحق والذي يفتري الكذب فجميعهم ظلمة لأنفسهم وظالمين في الافتراء، وظالمين في التكذيب بالحق، فإنهم سيحاسبون على ذلك، وسيجازيهم سبحانه وتعالى بما يناسب مبالغتهم في ظلمهم لأنفسهم، بافتراء الكذب على الله تعالى. فلا أحد أعظم ظلماً وجرماً ممن افترى على الله كذباً. ويدخل في ذلك من يُحَرِّمُ ما أحل الله تعالى، ويحل ما حَرَّمَ الله تعالى، ويقول: هذا حكم الله تعالى، فينسب تحريمه وتحليله الكاذب إلى الله عَزَّ وجل، ليضل الناس بجهله وكذبه وافترائه الذي لم يرتكز على علم، بل على جهل وضلال.

ومن دقائق البيان ما ذكره ابن عاشور رحمه الله تعالى: بأن دلالة ﴿لَمَّا ﴾ تفيد التزامن في التوقيت بين ﴿ كَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴾ وبين مجيء الحق ﴿لَمَّا جَاءَهُ ﴾ تُؤذن بأن تكذيبهم حصل بداراً، عند مجيء الحق. أي: دون أن يتركوا لأنفسهم مهلة النظر[١] فبمجرد مجيء الحق كفروا به وردوه، وطعنوا فيه، بما يدل الإصرار على ما عندهم من التعالي والاستكبار.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧٢٣/٨)

وقد ورد البيان الرباني في تشنيع المكذبين على الله تعالى والمكذبين بآياته بأسلوب التقرير، فجاء سؤالاً تقريراً ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ﴾ فهل هناك أظلم ممن افترى على الله الكذب؟ فالجواب: لا، فبذلك تقرر الظلم بنفي أن يكون هناك أكثر ظلماً ممن افترى على الله تعالى الكذب، أو كذب بآياته من الحجج والبراهين. كما تضمن النص الكريم الاستنكار لقولهم في آن واحد، فهو تقريري بأنه ليس هناك أكبر جرماً من أولئك، واستنكاري، بمعنى: فهل هناك أكثر وأعمق وأدهى ظلماً ممن يفتري على الله الكذب، أو يكذب بالحق الواضح المبين، وفي هذا بيانٌ شديد مع شد الانتباه بقوة التحذير والنهي والتهديد والتوبيخ، وتقرير استحقاق العقوبة القاسية من الله عَزَّ وجل. فليس هناك أبعد ظلماً من هذا الصنف من الناس الذين يستحقون سوء العذاب. فهؤلاء سيأخذون نصيبهم من العذاب العظيم والمهين.

ثم يخبر سبحانه بالمصير الأليم لهم، وبأسلوب التهديد والوعيد العظيم الشأن، وبأسلوب السؤال التقريري، الذي يقرر مستقر الكفرة المفترين على الله تعالى الكذب، والمكذبين بما جاءهم من الحق ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ أليس في جهنم مستقر للكفرة المفترين على الله تعالى الكذب، والمكذبين بما جاءهم من الحق، وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبالقرآن العظيم، والذين جعلوا مع الله شريكاً، ونسبوا له الولد، والبنات، سبحانه وتعالى الواحد الأحد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا. أليس كافيهم جزاء كفرهم أن جهنم مستقراً لهم، أي: يكفيهم جزاءً أن جهنم مستقر لهم. مما يفيد الإنذار لأهل الباطل من الباطل، وأن عليهم اغتنام فرصة التوبة، وفرصة الطاعة والامتثال، قبل مغادرة الدنيا إلى جهنم مُستقراً ومُقاماً. وهذا البيان من رحمة الله تعالى بعباده، إذ يعلمهم، ويصحح أفكارهم ومعتقداتهم، ويحذرهم، ويبين لهم ما سيكون عليه أمر المكذبين، والمفترين على الله تعالى الكذب.

ثم بعد بيان حال الكافرين المكذبين والمفترين الكذب على الله تعالى، وما أعده لهم من بئس المستقر والمنزل، بجهنم وبئس المصير، يختم الله تعالى سورة العنكبوت بكمال الثناء والمدح للذين جاهدوا أنفسهم على طاعة ربهم تبارك وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فإن الذين جاهدوا في سبيل الله تعالى لنتعهدهم بمزيد الهداية والتوفيق إلى طريقنا وسبيلنا الذي يوصلهم لسعادة الدارين، فإن الله تعالى مع من سلك مسلك الإحسان.

وقد ورد هذا البيان من الله تعالى بعظيم الدلالات من الفوائد، حيث ورد الجهاد هنا عاماً ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ ليشمل جهاد الكفار، وجهاد النفس على الطاعة، وجهاد النفس على البعد عن المعصية، وجهاد النفس عن غواية ووسوسة الشيطان. وصبروا ولم ينزلقوا مع الفتن والأذى، وكان هذا الجهاد خالصاً لله

تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ فهو جهاد خالص لله تعالى، ليس للرياء، وليس للسمعة، ولا لتحصيل المنافع من التكسب، ولا لخداع الغير بالمظاهر، بل ﴿ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ فهو تقصي في التحديد، وتوسعة دلالة الجهاد، ليجتهد المؤمن في الطاعة بالاتباع، وفي الإخلاص لله تعالى. ﴿ لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ لنوفقنهم بمزيد الهداية والتسديد إلى طريقنا الذي يوصلهم لسعادة الدارين، والتوفيق إلى سُبُل الجنة، ونجعل العاقبة من الخير لهم. ثم يعلل تبارك وتعالى ذلك التوفيق: بأن معيته لمن سلك مسلك الإحسان ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فإن الله تعالى مع من سلك مسلك الإحسان.

واستوفى قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ معية الله تعالى، بالنصر والتأييد، والتوفيق، والتيسير، الذي يسهل به حال المؤمن في جميع شؤونه ومبتغاه. وأنها خاصة بالمحسنين، مما يفيد محبة الله تعالى لمن اتصف بصفة الإحسان، وهي صفة جامعة لكل خير، يباشره ويعمله الإنسان مع نفسه ومع غيره من العباد، ومن ذلك مقابلة غيره بالإحسان، بأن يبر غيره بالخير، ويعاملهم بالأحسن، وليس بالمثل. وقد قال صلى الله عليه وسلم للصحابي الجليل عقبة بن عامر رضي الله عنه (يا عقبة بن عامر: صل من قطعك، واعط من حرمك، واعف عمن ظلمك)[١] ومن دقائق البيان أن اللام في ﴿ لَمَعَ ﴾ تفيد تأكيد معونة الله تعالى للمحسنين بالمعية التي تفيد السند والعون والهداية والتوفيق. وسبقها التأكيد بحرف التوكيد ﴿ وَإِنَّ ﴾ الذي يفيد تأكيد ما بعده من البيان، الذي هو ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ إن الله تعالى مع المحسنين. والمحسن هو الذي ترسخ فيه الإحسان حتى صار صفة له. وقد قال صلى الله عليه وسلم عن معنى الإحسان (هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٢] فينبثق عن هذا التَّعَبُّد لله تعالى أعمال الإحسان في الطاعة لله تعالى، والإحسان مع الغير. وفي هذا حث للمؤمنين بأن يجعلوا من أنفسهم محسنين، وراسخين في الإحسان بأقوالهم وأفعالهم، ليكون لهم الفضل من الله تعالى، وإبقاء سيرتهم مقترنة بالمدح والثناء الطيب. اللهم اجعلنا من المحسنين، وأحسن خاتمتنا بالإحسان والخير والتوفيق لمرضاتك.

تم بحمد الله إتمام سورة العنكبوت، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند (١٥٨/٤)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٥٠) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (٩)